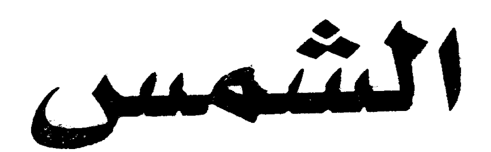


الشمس

مجموعة قصص أدبية

كتبها

ياسر محمد عبد التواب

أصيل للإعلام

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ ش خليل الخياط - مصطفى كامل
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ٩٧٩٩ / ١٩٩٩

الترقيم الدولى
٩٧٧ - ٥١٩١ - ٥ - ٢

أصيل للإعلام

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
بسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد ،،

فبين يديك – أيها القارئ الكريم – مجموعتى القصصية الأولى ، حاولت فيها أن أكون صادقاً ، فكل ما فيها ليس محض خيال – إلا ما كان رمزاً – إذ كنت ألتقطها رواية من أفواه من حولى ، أو تجربة عشتها ، أو خبراً قرأته ، فأسجل ذلك بقلمى حسبما أحس به وأراه منها ، وأعطيها من إحساسى ومن وجدانى فتأتى كلؤلؤة أفرزتها محارة عانت لتصوغها إبداعاً وزينة .

ومثلى فى ذلك كمثل رسام يرسم – بيتاً مثلاً – فيعطيه من رؤيته وفنه فيأتى بصورة قد تختلف عن رسم غيره لها ولكنها فى النهاية مزيج بين الواقع ورؤية الرسام .

والأدب – فى رأيى – طريق لمعرفة الحياة وقد ييسر الإطلاع

على تجارب الآخرين والإستفادة منها أو حتى مشاركتهم فى بعض المشاعر السامية أو المواقف اللطيفة ، وقد أساء كثيرون إلى ذلك اللون من الكتابة فأحالوه مستنقعاً للأفكار الضالة أو مباءه للإفساد وتناسوا الصورة المشرقة التى تدفع إلى مزيد من الأمل والعمل ، أو حتى تنقل واقع السواد الأعظم من الناس والذى أقطع بأنه أنظف كثيراً مما يصورونه .

ولا أزعم أننى أفلحت فى كل ما ذكرت ولكنها تبقى فى النهاية محاولة وباب أفتحه لعل غيرى يحسم فيه أكثر منى .

ياسر محمد عبد التواب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

الصندوق

كان يسير منحنياً .. يحمل صندوقاً صنعه بيده .. ويضع فيه تجارته البسيطة .. وقد علق الصندوق فى رقبته بسير جلدى رخيص .. ويرتدي بالطوا أبيض كالطبيب .. لمحته يسير وسط الزحام .. لا يعيره أحد إهتماماً .. كان وجهه لوحه تجمع بين البؤس وكبر السن .. تجاعيد صغيره ملأته فرسمت عليه سمات حزن .. وشعر أشيب مائل للنعومة .. قد غطى رأسه الضئيل فمنحه هيبه .. ورجلان هدتهما السنون تنوء بجسد صاحبها الصغير وظهر تقوس فلا أدرى أمن طول السنين أم من ثقل الصندوق الصغير .. السوق مزدحم يعج بالناس من كل لون .. رجال ونساء .. فتلك امرأة تجر ولدها الصغير تخشى عليه الضياع فى الزحام .. وذاك أبو عيال يحمل حوائجه من الخضر والفواكه بيديه كلتيهما وقد ساق

كرشه أمامه .. وهؤلاء باعه غلاظ الصوت ينادون على بضائعهم بأصوات متنافره عالية ..

وهو واقف على استحياء ببضاعته المزجاه .. كقشه وجدت نفسها بين خضم أمواج متلاطمه .. كان الوحيد بين الباعة الذى لا ينادى على ما معه .. لو نادى لما أسمع ..

اقتربت منه ونظرت إلى ما معه من البضائع بعض أمشاط شعر وأقلام وعلب كبريت .. نظرت إليه والتقت نظراتانا .. نظرتى المتسائلة الشغوف ونظرته المنكسره الملحة .. فمددت يدى وأخذت مشطاً .. ثم نقدته ما يزيد على ثمن ما يحمله .. ومضيت إلى حالى .. وأنا أنفض عن كاهلى شعورى بالمسؤلية عنه .. ولم أخط خطوات حتى سمعت صوته الكسيف ينادى كالصدى ..

– يا أستاذ الباقى ..

قلت له إنه لك .. قال شكراً .. أنا أبيع ولست أشحذ .. وكأنما ألقى علىّ دلواً من باء بارد .. فأعاد لى شعورى السابق تجاهه .. مددت يدى فتناولت بقية نقودى .. لا قيمة لها .. وضعتها فى جيبى وأنا غاضب عليها .. لم تؤد ما أريد واستدرت لأمشى .. أو لأهرب ..

غـصـت بين الناس .. حـتى إذا ابتـعـدت قليـلاً لـم تطاوعنى
عيناى حتى نظرت إليه مرة أخرى فرأيته يعود إلى مكانه .. وقد
استقام ظهره فى عزة .

السيرك

حُلْم حياته القديم أن يدخل السيرك .. وأنى له ذلك ؟!
فسنوات عمره التسع ملأى بأحلام كثيرة .. فالدجاج الذى « يلف » أمام النار عند المطعم القريب من الشارع الكبير أحد أحلامه والحذاء الذى يلمع فى رجل ابن الجيران حلم آخر واللعب فى الحديقة العامة مع رفاقة ليس آخر أحلامه .. أما السيرك فله شأن آخر .. فقد سمع من رفاقه الكثير عنه .. الأسد الذى يطير فى الهواء ويدخل من دائره النار ويفغر فاه ليضع فيه المروض رأسه كم كانت تعجبه شجاعة ذلك الرجل .. والمهرج الذى يركب السلم ليقع على زميله فيلقى زميله « بالجردل » على رأسه فيضحك الناس ..

قالت أمه : العين بصيرة واليد قصيرة .. اكسب قوتك يابنى وعسى أن يحقق الله لك أحلامك .. يتركها مخذولاً .. ليرتدى « العفريته » ثم يذهب إلى ورشة المعلم صبحى ..

ويلتقى فى طريقه برفاقه وهم ذاهبون إلى المدرسة .. فيغير طريقه حتى لا يرون ملابسه المتسخة .. ورشة المعلم (صبحى) هى مقر عمله وقروش المعلم صبحى هى غايته .. وصفعات وركلات

المعلم (صبحي) هي أكثر شيء يتكرر فيها « لازم ينضرب كويس علشان يتعلم كويس » .. هكذا قال صبحي لأم الصبي لما جاءت تلومه على ضربه ومن وقتها وهي تصبِّر ابنها ليتحمل إيذاء صبحي .. حتى يتعلم ! ..

إلى أن جاء يوم كان صبحي مقطب الجبين وادرك فتانا ذلك من وجه وكلامه فاجتنبه إلا أنه كان يبحث عن شيء يفرغ فيه كبته فنادى عليه وسأله : أين المفتاح الأصفر .. أي مفتاح .. نال الصبي صفعة تلقاها على وجهه أولا تعلم أي مفتاح أيها الولد وشفعها بثانيه وثالثة اذهب فائتني بفطور .. خرج الفتى سريعاً فأحضر له فطوره ثم عاد .. لم تأخرت .. ما بك اليوم .. وانهالت الصفعات والركلات والفتى يتقيها بيديه ويبكى ويسترحمه فلا يرحم .. أنصت الفتى لصوت تردد في نفسه وأحس بشيء يهتك داخله .. فما شعر إلا وهو يطلق ساقيه للريح ..

جلس صبحي مستريحاً على أريكته وقال : « هايرجع » .. ولم يعد الصبي فقد قادته قدماه إلى « السيرك » ووقف يبكى بجواره ثم عاوده حلمه القديم .. ودفعه الفضول إلى الدخول .. فدخل متسللاً .. مر بالأقفاص ونظر إليها .. هذا هو الفيل ..

وذاك الأسد ينظر إليه ويتثاءب .. تأمل فيه .. وتذكر الرجل الذى يضع رأسه فى فم الأسد ما أشجعه ! .. وبينما هو فى تأمله .. إذا يد ثقيله تسقط على كتفه .. ماذا تفعل هنا ؟ .. رجل ضخم الجثة قال أنا.. بوجل نظر إليه وتلعثم .. أنا أبحث عن عمل ..

فى البيت أمه ملتاعة .. أين ذهب.. لقد غاب عن البيت لأكثر من يوم وكلما سألت صبحى ماذا حدث قال : لا شىء ، ثم يتكىء قائلا : « هايرجع ».

الابن غالى .. قالتها وهى تبكى وواستها الجارة فأردفت ولو كان عندنا ما يكفينا ما أحوجناه إلى العمل .. فحكت لها الجارة عن سيدنا عمر الذى وجد الصبية الجياع وأُمهم تصبرهم بماء تغليه فحمل على كتفه الدقيق حتى صنع لها طعاماً .. وأنه كان يقول لو أن عنزه تعثرت فى العراق لخشيت أن يسألنى الله عنها يوم القيامة .. لِمَ لمْ تمهد لها الطريق ..

تنهدت قائله : ياليتنا كنا عنزات فى عهده ! .

الصبى يعمُل الآن بالسيرك .. لم يجد فرقاً كبيراً بين صبحى وغيره .. الجميع صبحى .. إنه الآن ينظف الطريق وحول الأقفاص .. طيلة النهار ..

حتى إذا جاء الليل .. يكون التعب قد أنهكه وخارت قواه

فينام قبل أن يقضى نهمته من رؤية السيرك .. أما طعامه فيأكل معهم .. يأكلون دون أن يتكلموا ..

تعجب من حالهم أوليس هؤلاء الذين يسمع عنهم ورآهم فى الحلبة .. أين ضحكات المهرج .. وأين قوة مروض الوحوش .. إنهم يتحولون أمامه إلى أسمال بالية تلقى بعد أن ترتدى .. ليسرح كل منهم فى همومه .. ثم ينصرف لينام .

أما الحيوانات فحالها شبيه بحالهم .. يؤدون أدوارهم ثم يودعون فى الأقفاص ويطعمون ما لا يكفيهم .. حتى الأسد .. أصبح يشفق عليه مسكين .. يلقى إليه بعض « كيلوات » من لحم حمار عجوز رأى صاحبه وهو يسوقه من الباب الخلفى ليقبض ثمناً بخساً ثم لينصرف بعد أن يلقى عليه بنظرة .. أهى نظرة وداع أم تشفى .

أيها السيرك كم فيك من غرائب .. وكم تجمع من المتناقضات .. هكذا كان يفكر الصبى عندما مر بالمروض وهو يغازل لاعبة الأكروبات .. نهره المروض ليبتعد .. فابتعد إنه الرجل الشجاع الذى يضع رأسه فى فم الأسد .. «محبس » قفص الأسد لم يكن مغلقاً نساه المروض عندما رأى الفتاة تمر من أمامه .. أو لعله تآكل من صدأ السنين .. الأسد داخل عرينه المزور يتمطى

جائعا .. لم تقدم له وجبة الحمير .. أو لعلها قدمت له ولم تكفه .. الولد يمر بجوار القفص .. الأسد يخاله غزال يختال أمامه .. ويتذكر أيام صباه .. « تكة » صغيرة هى آخر ما سمعه الصبى .. لقد جرب ما يفعله المروض كل يوم ما أشجعه الآن .. يضع رأسه فى فم الأسد ..

من هو .. ؟ .

لا نعرفه .. لقد جاء من أيام يطلب العمل .. سجل الحادث لشخص مجهول .

وأمه تتذكره وتتنهد : ياليتنا كنا عنزات فى عهد عمر ..

وصبحى يجلس على أريكته ليضرب صبيّاً آخر .. حتى إذا اشتد عليه شد ظهره إلى الخلف وقال وهو ينظر إلى الصبى الفار .. « هايرجع » ..

علامة استفهام

كنت فى طريقى إلى حجرتى بالفندق عندما لمحته .. سبحان الله لم يقف هكذا .. لم أعره إلتفاتاً وإنما ظل شكله وهو واقف بهذه الطريقة مثيراً لاستغرابى ..

كان كبيراً قد ناهز الستين عاماً ويرتدى بدلة قديمة تحمل على أكتافها تراب سبعين سنة مضت من الشيوعية المولية .. وساءلت نفسى ترى ماذا يفعل ؟ ..

دخلت إلى حجرتى ومكثت فيها فترة طويلة .. ثم عدت أدراجى .. فإذا به فى مكانه .. لايزال يقف نفس الوقفة .. بجوار باب إحدى الحجرات .. وقد قوس ظهره على شكل علامة استفهام .. فى هذه المرة تأملته قليلاً الشيب يملؤ رأسه إذا دارت معركة بينه وبين السواد انتهت بغلبته وهيمنته على شعره وانهزم فلول الشعر الأسود ساحبه معها سحابه عمر أفرغت ما فى جوفها.

أما وجهه فقد احمر من انحنائه بهذه الطريقه لفترة شهدت منها نصف ساعة على الأقل والتجاعيد فيه زادها الانحناء انتفاخاً لتنضم إلى لوحة العجز المرسومة على الرجل ..

وقفز السؤال إلى ذهنى مرة أخرى ماذا يفعل ؟ .. استحييت أن أتتبع رغبة نفسى لأتحقق مما يعمل .. ولكن ظل شكله الغريب مرسوماً فى مخيلتى ..

أثناء تناولى لغذائى .. لم يكن أمره يهمنى كثيراً ولكنى كنت فى شغفل خفى لمعرفة ما يفعل .. تراه يمارس نوعاً من اليوجا مثلاً .. سرعان ما ضاعت الفكرة من رأسى مع انشغالى بمشاغل أخرى ثم عدت إلى غرفتى وقد نسيت أمره تماماً .. وفى طريقى اليها كان هناك .. عجباً أما زال فى مكانه ؟! .. أما زال يقف نفس وقفته .. نفس الإنحناء .. وعلامة الاستفهام التى يرسمها بظهره ! ألم يتألم من هذه الوقفة ؟ .. ما زال وجهه محمراً يكاد يتفجر منه الدم .. فى هذه المرة زال كل تحفظ كان يمنعنى من كشف سرة ..

بالرغم من غربتى عن المكان وخوفى الدائم من عصابات المافيا التى تملأ موسكو .. وبالرغم من تحذيرات أصدقائى بألا أهتم بما ليس من شأنى أو أفتح غرفتى إلا لمن أعرفه .. طرحت كل ذلك جانباً ووقفت بجواره مباشرة .. ولم أدر أسبقت تلك المرأة التى وصلت إليه فى نفس اللحظة التى وقفت فيها بجواره ..

خفت حدة جرأتى بعد أن ظهرت المرأة .. يبدو أنها تعرفه .. وكان عليّ أن أتصرف سريعاً .. فملأت عينى منه قبل أن أنصرف ..

وفسرت نظرتى الأخيره كل ما جرى قبل أن تلتقط منه المرأة ما فى يده لتفتح باب الغرفة .. لقد كان يحاول فتح باب الغرفة بالمفتاح ولكن من ناحية مفصلات الباب وليس من ناحية ثقب المفتاح ... لقد كان سكراناً .

عملية قتل

أسملتها له .. التقطها من يدى .. صرعها .. ثم وضع سكينه على رقبتها وحركها فى اقتدار ثم تركها سال دمها على الأرض .. لم تقاوم .. بل نظرت إلىّ .. نظرتها تسألنى .. لماذا .. أشحت بوجهى .. لا أريد أن أراها .. ماكنت أظن أن الأمر يهمنى .. ولكن رؤيتها أثارت الشجن فى نفسى .. وددت لو لم أعطها له .. وددت لو لم يذبحها وددت لو ذبحها وأنا بعيد .. بعيد .

وتذكرت أول لقاء .. كانت بالنسبة لى دمية .. أحضرتها ليلهوا بها .. كان عبثاً منى أن أحضرتها ولكنها جاءت وانقلب الحال .. وأصبح لها وجود عندى فى حياتى .. هل أكلت .. هل نامت .. وأصبح كل من فى المنزل موقف منها .. حتى الأولاد .. امتهنوها .. جذبوها .. وتركوها .. حاولت الهروب .. تركت المنزل .. فأعدناها .. حاولت الانتحار .. فمنعناها .. استسلمت لنا .. ومرت أيام .. زهد فيها اللاعبون .. وأصبحت عبئاً على الحياة .. أوهكذا قالت زوجتى .. وأخذت أفعالها تنتقد .. إن جلست فى مكان .. قيل قذرته .. وإن أكلت طعاماً قيل مجته .. حاولت أن

تجالسنا .. أن تدخل إلينا .. ولكنها ما وجدت ترحيباً .. انكمشت على نفسها .. واعتزلت مكاننا .

وها أنا ذا أنظر إليها الآن صريعة .. وحيدة .. تغالب الموت فى يأس .. يسيل الدم على ريشها الأبيض فيصبغه بالسواد .. بالحزن .. ورجلاها تختلجان .. وكأنها تحاول إعادة الروح المنسابة من جنباتها وهيهات .. وأنا أنظر إليها مبرقاً عيناى .. ماذا فعلت ؟ .

خلف القضبان

وقفت خلف القضبان أنظر إليه وهو يتهادى فى مشيته .. ينظر يمنّه ويسره .. ويذرع المكان جيئه وذهاباً يرفع رأسه الكبير إلى أعلى بشقة يغلبها النعاس ويداعب أنفه بيده الضخمة فى اقتدار .

كانت السنون قد أذهبت شيئاً من الهالة التى يرسمها الناس له ، ولكنها أبقت له بقايا هيبة ووقار تلقى فى النفس بظلال من الرهبة ، كلما اتجه باتجاهها ، أو أطل ناحيتها .

تختلف النظرة من خلف القضبان إلى الأمور وإلى الحياة .. إذ تضفى قدراً من الشجاعة والثقة لذا فقد آليت على نفسى أن أرمية بنظرة أملؤها بكل ما أوتيت من التحدى .. نظرة تسخر منه ، وتقول له : أين أنت الآن ؟!.. وأين من كان يمشى خلفك ويجرى حولك .. ويأكل من فتات ما أبقيت ؟!

.. أين قسوتك فى الهجوم على من شئت .. تحصره ثم ترهقه ثم تأكله .. فى كل يوم صيد جديد .. فى كل يوم دم جديد .. قديم .. برئ ! .

كان يتحاشى النظر إلىّ .. أتراه يخافنى ؟!.وكيف لا

يخاف ؟! .. وهو الآن محصور مقهور خلف القضبان ! ..

أم تراه يظن من خلف القضبان .. أنه قد جىء بنا إليه لينظر إلينا .. ويأنس بوجودنا ..

أيها الملك : نحن من خلف القضبان أحرار .. أحرار منك ، من غشمك وقسوتك .. لن نكون كفرائس الأمس ، يلقى بعضنا لغذائك وبعضنا لعشائك .. ونحن سعداء بك وبحكمك العادل الذى وصل بنا إلى مائدتك .. كمثل الثعلب الذى علمته رأس الذئب التى طارت أمامه أن يقسم القسمة التى تريد .

أتراني قد ظلمتك ؟! قد يكون فأنا أنظر من جهة القطيع الذى تطارده ، والذى يدافع عن أعز ما يملك : عن حياته ..

وأنت تنظر إلينا من جهة أخرى .. لابد من قتلنا لتبقى .. تأكلنا لتعيش ..

أى كبر فى نفسك وأى صلف تعانى منه .. لم لا تنظر إلىّ .. أريد أن تلتقى عين بعينك لأصب جام شماتتى فى نظره لا أملك غيرها ..

أريد أن قول لك بها إنك قد تكون قوياً .. ولكن القوة ليست كل شىء ..

آه أخيراً نظرت إلىّ .. إذن خذها طعنة فى جنبك فى عينك

فى كبريائك .. ماهذا ألم تفهم منها شيئاً لماذا أدرت رأسك وكأنك لم ترانى ..

أيها الملك أننى شامت فيك .. أنا لا أخافك اليوم وأنا خلف القضبان .. وأنت خلفها .. ليت شعرى من منا خلف القضبان أنا أم أنت .. من منا المحبوس فى مكانه .. أنا أم أنت .. ترى ما تلك الامبالاة التى تعانيها .. أمن كثرة الشامتين .. أم ترفع عن الصغار .. أم اعتيادٍ عن الإهانة .. أعرف أن الشماتة سلاح الجبناء ولكن أنى لمثلى أن يظهر غيرها فى ساحات الوغى .. ولكن حسبى أنى كفيتك بغيرى وإنك هاهنا عنى بعيد .. تحول بينى وبينك القضيان كمثل ما تحول بينك وبينى .. إنها أرض محايدة التقينا فيها سلاحنا فيها النظرات .. فإن كنت أنت القوى فسلاحك الآن باطل فساد .. استخدم سلاح النظرات أرنى براعتك فيها .. أشرعه فى وجهى كما شرعته فى وجهك .. أجب من سؤآلى .. من جاء بك إلى هنا .. ما الذى دفعنى للتشفى منك ..

إن كنت لا تلتفت إلىّ ولا تعيرنى إهتماماً فسأتخذ خطوة أخرى .. سأصيح بوجهك بل سأبصق عليك .. وظللت أجمع ما فى صدرى من نخامه وأكثر منها حتى ملأت فمى ... وهو مازال يتهادى جيئه وذهاباً حتى إذا اقترب منى بصقتها عليه .. وقعت

على القضبان .. لم تصل إليه ونظر إليّ غير عابئ .. صحت فى وجهه صرخت « هيبه » .. فأجابنى بزئير اهتز له القفص والناس والحديقة وإرتعدت .. .

دوائر الخوف

عرف الخوف مبكراً فقد كانت أمه قاسية تنزل به أشد العقاب لأتفه الأسباب .. كانت تحبه لكنها تقسو عليه ليصير رجلاً .. هكذا كانت تقول .. جزاؤه إن أخطأ ضرباً مبّرحاً ، وإن فشل تقريعاً وتوبيخاً .. وإن تأخر خارج البيت لوماً وتأنيباً .. أما إذا نجح وإذا أحسن فكثيراً ما تنسى أن تشجعه ..

وعرف الخوف .. ارتعدت فرائصه .. اقشعر بدنه .. مص أصابعه صغيراً وقضم أظفاره كبيراً .. وإن ينسى فلم ينس يوم أن استضاف أصحابه فى غيبة أمه وظلوا يلعبون فى المنزل وطال عليهم الوقت فهاجوا فى البيت يقفزون على الأسرة ويتقاذفون الكرة .. وهو يحس فى نفسه أنهم يخطئون .. وكانت المصيبة كرة طائشة تصدم لوحة معلقة فتشرخ منها .. وخاف .. وانصرفوا .. وعادت .. وسرعان ما اكتشفت ما حدث .. اصفر لونه .. اعتذر .. صرخ .. جرت خلفه طرحته أرضاً .. قرصته من فخذيه وشدت شعره وطمت رأسه بالأرض .. إنهالت عليه ضرباً بعصا غليظة .. ألم .. ألم .. ألم .. وتركته ..

انكمش فى ركن الحجرة .. يلهث من الإنفعال والبكاء .

يسرح بخياله دوماً .. يعيش فى عالم الوهم أحياناً .. يعيش وحده .. يبتعد عن البيت .. عن الخوف .. ينظر إلى المرآة .. يرسم عليها دائرة .. بيده .. يتأمل فى نفسه .. فى شعره .. وعينيه .. ويمضى الوقت لا يشعر به .. ويخاف...

الهروب .. أقصر طريق للابتعاد عن الخوف .. وصل إلى ذلك القرار بعد طول تأمل .. إذا أراد أن يفعل شيئاً .. فليفعله فى الخفاء .. هكذا كان يهرب من العقاب .. وأصبح له أسرار يحرص ألا يطلع عليها أحد .. وذهب إلى المدرسة .. فإذا فشل فى شيء أخفاه .. فلا يشعر به أحد .. وأمه مشغولة عنه بعملها .. يهرب من الجلوس معها .. قالوا : صاحب حياء .. فلا يجالس الزوار وأعجبته الفكرة .. انزوى فيها .. هرب إليها .. يستحى من الناس .. أفضل من أن يخاف منهم .. كبر قليلاً .. شرب السجائر سراً .. لا يراه أحد .. يمشى فى الطريق وحيداً .. يتلفت يخرجها ويشعلها ويلقد الكبار .. فينفثها فى الهواء .. لا يخاف .

شربها أسبوعاً كاملاً .. رائحتها فاحت من ملابسه وفمه .. كان يغسل فمه جيداً .. ويحرص ألا يقترب من أمه حتى لا تشم رائحتها منه .. خاف .. صدره يتردد بشدة وهو يجرى ليلحق

بسيارة المدرسة .. يحس أزيراً كأزير المرجل فى صدره .. يسعل ويحمر وجهه .. يحس بالضعف أمام السجائر .. يخاف منها يتركها .. يخاف .. يهرب .. يرسم دائرة على مرآته ..

وفى المدرسة يشعر الخوف .. الخوف من العقاب .. الخوف من الفشل .. وينادى الأستاذ فى الفصل على اسمه ويقف وينظر إليه زملاؤه .. نتيجة الإمتحان صفر .. يبصق على وجهه .. تف .. لم تصل إليه .. ولم ينس ذلك الموقف ولا اسم ذلك الأستاذ .. ولا مدرساً آخر وجده غير منتبه فصفعه على أذنه ..

أزيز وألم

ولا مدرساً ثالثاً عاقبهم عقاباً جماعياً بعصا كعود القصب الكبير طولاً وعرضاً لكونهم أزعجوه بأصواتهم وانزوى فى ركن الفصل .. يهرب من نظرات المدرسين ويسرح بخياله .. ويتأمل .. ويهرب وتسرب من المدرسة وخرج منها .. وسار مع صديق له .. تنزهاً فى الحدائق .. جرياً فى الشوارع .. ساعدا رجلاً كبيراً تعطلت به سيارته .. وعادوا إلى المنزل كأن شيئاً لمن يكن .

وتكرر غيابه .. وأرسلت المدرسة إنذاراً إلى والده .

عاد ذات يوم فوجده فى انتظاره .. سأله .. سكت .. وكرر

سؤاله .. وسكت .. وانهال عليه ضرباً بحزام معدٍ سلفاً .. أحس بتحدٍ فى نفسه .. تجلد .. لم يظهر الألم .. لم يجر .. أعجبه الشعور الجديد .. التحدى .

بين الهروب والتحدى كان يعالج الخوف فى نفسه .. وكبر وذهب إلى النادى وكان مجتمعاً كبيراً يموج بالناس .. شباب وفتيات .. رجال ونساء.. علاقات متشابكه وأحداث مختلفة غريبة عليه أخذ يراقبهم من بعيد .. هاب الانخراط .. خاف .. هرب .. فلم يذهب وتحدى ثم عاد .. تكلم .. فلفت الأنظار إليه .. وتغلب على خوفه .. اعتاد عليهم .. وتكرر ذهابه .. التحق بالأنشطة الاجتماعية وبرز شيئاً فشيئاً .. يشعر بالتقدير ممن حوله .. فيحبهم .. ويخاف أن يفقد ذلك عندهم يخاف ويخاف .. يعادوه ذلك الشعور .. يتعلثم .. يضحكون .. يخاف من الفشل ومن فقدانهم أيهرب ؟ لا .. بل التحدى .. يتحدى الفشل وينجح ويصير نجماً محبوباً .

فى المنزل تتحسن علاقته بأمه وأبيه فقد استطاع أن يقف على علاج لخوفه منهم .. يهرب من مواجهتهما .. هكذا ظن العلاج : لم يعد يسرح أمام المرآة لساعات كما كان يفعل بل

كان ينظر فى ثقة إلى نفسه ويتكلم وينظر إلى نفسه وهو يتكلم وإلى فمه وهو يتحرك..و ابتسامته التى يريد أن تكون ساحرة ويلتحق بالجامعة ويمارس فيها دوره الذى اعتاده فيصير نجما كما يحب .. ويشترك فى إحدى المظاهرات ويقف منددا وخطيبا ويحوز الإعجاب ويتفرقون عند أسوار الجامعة ..

تداهمهم قوة السلطة .. يخاف ويخاف .. أيهرب أم يتحدى ؟ يهرب .. ويطلق العنان لساقيه .. يجرون خلفه .. يخاف .. يتوارى فى المارة .. يخافون منه .ويفرون من المطاردة ويبتعدون عنه .. وينكشف ويلقون القبض عليه .. يحققون معه .. يهرب ويهرب .. ويتركونه فى الحجز وحيداً .. يدخل عليه رجال منهم .. معصم أحدهم أكبر من فخذه .. أيضربونه .. يخاف .. ويتكوم .. وتدور أمام عينيه دوائر الخوف .. ويتذكر عصا أمه وحزام أبيه وصفعة أستاذه وسخرية أترابه .. السلطة .. الهروب .. الهروب ! ..

أين التحدى ؟! وكأنه يهرب هو الآخر .. يريد أن يلحق به وهيهات وكأن صنمه الذى صنعه لنفسه يتهاوى .. أحس كأنه يتعرى أمام نفسه وهو لا يستطيع الهروب .. ولا التحدى .. الألم .. الخوف .

يُستدعى أبوه ليوقع على إقرار بإستلامه . ينظر إليه فى لوم
ويمضيان إلى المنزل لم أفعل خطأ ولم أرتكب إثماً .. هكذا كان
يقول لنفسه عندما وجدها سارحةً أمام المرآة ترسم الدوائر كعادتها
القديمة .. واجتنبه أصدقاؤه .. خافوا على أنفسهم منه .. أليس هو
الآن صاحب سوابق وانزوى .. خاف .. راوده شعور التحدى وكبر
فى نفسه رويداً .. وذهب إلى النادى .. وتنكر له الناس إلا قليلاً ..
لم يعد نجم مجالسهم .. ولا أنيس أسمارهم .. وخاف منهم ..
هرب وعاد إلى مرآته يجلس أمامها فى صمت ، وأمامها تثور أسئلة
فى نفسه عن الناس وعنه ويستعرض حياته بحلوها ومرها ،
ويتمادى فيسائلها عن الحياة ما سرها ؟ هل هو الخوف أم
الحب؟ لماذا نحن ؟ من نحن ؟ وإلى أين المصير ؟ .. ويحتار
وينهض من أمام المرآة يذهب إلى النادى .. ألديهم إحتفال اليوم ؟
الزينات معلقة فى كل مكان .. إنه الاحتفال السنوى ويحاول أن
يساعدهم حتى يرضوا عنه ، ويذهب ليوصل الأنوار .. لا يحسن
التعامل مع الكهرباء .. ولكنه يخاف من إظهار جهله بها ..
جسمه يهتز يعنف وحرارة يشعر بها تتحرك فى جسده ورعشة
تشد نخاعه ورأسه يدور ويتهادى وتدور أمام عينيه دوائر
الخوف وتفور فى نفسه أسئلته أمام المرآة ويتساقط ويهتف يارب ..

يارب .. ويسكت .

لقد صعق .. وعلى سرير المرض يجد نفسه وحيداً .. يغلق عينيه وينام .. ويستيقظ لماذا نحن ؟ إلى أين المصير .. ثم يسرح فى اللاشىء .. يبحث فلا يجد مرآته .. وينظر من النافذة إلى الخضرة وإلى السماء .. ما أجملها .. ويسرح .. لماذا هى أيضاً ؟.

ويعود متهالكاً إلى سريره .. هل خلقنا للحب أم للخوف ؟ وتذكر هتافه عندما صعق .. لماذا قال يارب ؟ ما الذى دفعه إلى تذكر الله وهو بعيد عنه لماذا ؟ .

ويحس بالرهبة أمام قدرة الله .. يخاف منه .. ويهرب .. يتعب من التفكير .. ويزوره أصدقاؤه .. ويهدونه باقة ورد .. يشمها ويبتسم .. وينصرفون ويتأمل باقة الورد .. ما أجملها !! ..

ويعود إلى نفسه .. أتراه قد استسلم .. أين التحدى الذى كان يفر إليه فيجد فيه علاجاً لخوفه ؟ .. نعم فليتحدى نفسه .. وليتحد كل شىء حتى أوامر الله ؟ ويرتعد .. ويتذكر الصعقة .. ويتذكر هتافه .. يارب ويعود السؤال :

إذا كان ما حدث لى كان بعلم الله ، فلماذا استنجدت بالله ؟ ويتعب من التفكير .. وينام .. وفى الصباح ينظر إلى باقة

الورد .. آخذة فى الذبول .. يتأمل فيها وفى جمالها .. ورائحتها .. لماذا تذبل ؟ لماذا تنتهى ؟ الحياة .. لماذا ننشأ صغاراً ثم نكبر ونموت .. أعبثيه تلك الحياة ؟ .

ويخرج من عزلته ويتعافى من مرضه ويمشى فى الطريق .. فيحس أن كل شيء أمامه جديد عليه الأشجار فى الطريق .. الناس .. الحياة ! ويسأل نفسه هذه الأشجار وهؤلاء الناس يشتركون جميعاً فى الحياة .. لكن الشجر يختلف .. إنها الروح .. ومن خلقها .. الله أم غيره .. هل خلقت من غير شيء ؟ ..

ثم يقول لنفسه بصوت عالٍ : وهل هذه السيارات التى تمشى فى الشارع إلا اختراعاً صاغه بعض البشر .. فهل يعقل أن يكون الإنسان .. أو الشجر قد وجد من غير شيء .. أزاح الفكرة عن نفسه ومضى فى طريقه .

باقة الورد .. ذبلت تماماً .. ألقاها فى سلة المهملات .. ووقف يتأمل .. الموت .. ونهاية الحياة هل خلقنا لنموت ؟ ..

وتمر الأيام ويموت أحد أقاربه .. كان شاباً .. وأحزنه الخبر .. مات من غير مرض .. وسرح أمام مرآته .. يرسم دوائر أخرى فى عبثه جنونى ويذهب إلى المقابر يريد أن يتعرف على الموت وتأمل

فى الناس حوله وهم يحملون جنازة على أكتافهم يبكون أو يتباكون وقف على القبر وهو يلحد الأحجار تتساقط مع المعول .. الحفرة تتسع قليلاً .. لكم هو حنق ذلك القبر .. وخاف .. خاف من الموت .. من القبر .. من الحياة .. ووجد نفسه يبكى معهم .

وقف شاب يعظهم قال : إن الله يقول : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴾ [1] [المؤمنون ١١٥ – ١١٦] ثم أردف لم نخلق عبثاً ولا هملاً بل خلقنا الله لعبادته فهو الخالق وهو القادر ثم ها نحن نودع كل يوم غادياً رائحاً إلى الله قد ودع الدنيا وتركها واستقبل الآخرة ، فهل نحن لها عاملون ؟ ..

أحبوا الله فقد رزقكم بما ترفلون فيه من النعم وهو الغنى عنكم وأنتم الفقراء إليه وأجمعوا فى قلوبكم بين الرغبة والرهبة منه ..

وتأمل فى كلامه .. على بساطته ويسره .. نعم خلقنا الله .. فهو القادر .. حسابنا فى الآخرة ..

قال لنفسه : الآخرة ؟ كم كنت غافلاً عنها .. وخاف من الآخرة

.. خاف أن يعاقبه الله فى الآخرة .. وخشى الفشل .. ارتعد .. يريد الهروب إلى أين ؟ .

يارب كيف أهرب منك وأنت تحيط بى .. لجأ إلى الله وصلى .. أحس بطمأنينة تسرى فى نفسه .. الموت ما هو إلا مرحلة للآخرة .. نتيجة للاختبار .. الحياة ليست عبثاً .. لسنا فيها كالبهائم نموت ونحيا .. هكذا قال لنفسه أحس أنه يحب الله .. رجع إلى مرآته وتأمل فى نفسه أحب الله وأخشاه .. نفكر فى كلامه وابتسم .. حمل المرأة من مكانها أمام سريره ووضعها فى مكان آخر ولم يعد ينظر إليها .. لم يرسم عليها دائرة أخرى ..

يفتح النافذة فيأتيه شعاعها قوياً ساطعاً .. يقف فى ثقةٍ متأملاً فى الكائنات حوله فيأتيه منها شقشقة العصافير وعطر الزهور وبديع صنع الله فيتنهد فى رضا وهو يقول : الحمد لله .

الإختيــار (*)

كـان الليل مـسـدلاً سـتـاره على الكون .. وقـد تلألأت فى السـمـاء بضع نجـوم .. لم يكن القـمـر بدراً ولكن انشـقـت الأرض عن ثلاثة بدور .. ثلاثة رجال فى عمر الزهور .. كانوا يعرفون أين سيتجهون وماذا سيفعلون؟ ..

هبت نسائم باردة فداعبت وجوههم لتزيدهم نشاطاً وتصميماً .. فى خفه الفهد اقتربوا من حافة الغابة فبدا لهم من بعيد معسكر الأعداء وكانوا قد أعدوا الخطة سلفاً سيذهب اثنان ويبقى واحد يراقب ويغطى الانسحاب .. وكان لابد من الزحف حتى لا يراهم المراقبون ..

زحف الثلاثة فاستقر أحدهم فى حفرة قريبة وتابع أخـواه زحفـهـما .. عيناه ترقبان المكان .. لابد من الحذر .. خطأ واحد معناه النهاية له ولأخويه .. مـرت سـاعة وهـو فى مـكانه لايكل من المراقبة ولا يمل من المتابعة .. ألهج لسانه بذكر الله يتسلى بالتسبيح وقد بدا له أن الأمور تسير على ما يرام .. سمع خشخشة

---

* وقعت أحداث هذه القصة فى البوسنة مع الصرب إبان الحرب مع الصرب .

الحشائش من خلفه .. إلتفت فى هدوء فهاله ما رأى .. رأى دُباً يقترب منه .. مد يده يتحسس بندقيته ولكنه تذكر .. تذكر اللذين يقومان بالعملية .. إن هو أطلق النار فسيلفت الأنظار إليه .. سيضيع أخواه وتضيع معهم آمال من خلفهم ..

والتقت العينان .. عين جائعة محرومة .. وعين خائفة .. وتسمر صاحبنا مكانه حتى كأنه يسمع دق قلبه ..

فى تلك اللحظة كان عليه أن يختار .. ليس من اليسير على النفس أن تستسلم لأنياب دب جائع .. إن معه بندقيته .. طلقه واحدة وينتهى كل شىء .. ولكن أخواى هناك ماذا سيفعلان ؟ أمتنا .. قضيتنا .. بدأ الدب فى الهمهمة وأطبق بيده على بندقيته .. صراع مع النفس كأن يده تريد أن تتصرف رغماً عن فكره ..

الإنفعال يهزه هزاً فأغمض عينيه كأنه يبعدهما عن ساحة المعركة .. صوت الهمهمة يرتفع قال لنفسه : « ألست هنا لأجاهد فما الفرق بين الموت على يد الأعداء والموت بين أسنان الدب » ثم تخيل نفسه قبل أن يموت و الدب ينهشه بلا رحمة « رباه يا أرحم الراحمين نجنى مما أنا فيه » .

هكذا ظل يردد وهو لا يشعر .. أحس بالهمهمة تخفت فتح عينيه فوجد الدب قد ولى دبره وانصرف عنه .. تهلل وجهه وانفرجت أساريره وحمد الله على النجاة وماهى إلا دقائق حتى انشق سمع الأرض عن صوت إنفجار هائل .. تبعته نار أضاءت بنورها المكان كله .. وعن بعد وجد أخويه يركضان تجاهه .

(بكره الفـرح) ..وإصطحب علاء أصـدقـاءه ليسـاعدوه على إتمام فرش الشقة .. الشقة فى الدور العلوى لعمارة متوسطة القدم ومتـوسطة الارتفـاع وفرح الغد - لأخت عـلاء - يحتـاج منهم سرعة إتمام ما تبقى من التجهيزات ...

ولأن «الناس لبـعضـهـا » والصـاحب للصـاحب فـقـد سـهـر أصحاب علاء رغماً عنهم إلى قرب الفجر لإتمام المهـمة .. كانوا يتسلون بحديث باسم ساخر أحيـاناً ليـقطع رتابه العـمل وترتفع أصـواتهم ضـحكاً على تعليق وجـدلاً حـول فكرة أُثيـرت فيـقطع ضجيجهم سكون الليل الهادئ لتلك القرية الصغيرة التى يسكون فيـهـا .. إنزعج أحد الجيـران من ارتفـاع أصـواتهم .. تبرم .. أدار قرص التليفون !

إنزوى عبد الله - أحدهم - جانباً بعد أن أرهقه العمل ليتابع الآخرين من بعيـد وهم يعـملون ويتكلمـون وجد أمامـه آلة كاتبة قديمة وضعت على « ترابيزه» قريـة .. ابتسم فى تهكم ما الذى جاء بها إلى هنا ثم خطـر له أن يتسلى قليلاً بها ..

لم يجرب قبل ذلك أن يكتب خطاباً أو حتى صفحه كتاب على الآلة الكاتبة .. شيء مثير للفضول أن يجلس إلى مثل تلك الآلة هكذا قال لنفسه .. وضع فيها صفحة .. كتب بسم الله الرحمن الرحيم .. ماذا أكتب .. مع إحدى النكات التى سمعها من بعيد ومع ارتفاع ضجيج أصحابه قفز إلى ذهنه فكره مضحكة .. لم لا يكتب خطابا إلى صديقه (على الزفتاوى) فى الغربه يمازحه فى هذا الجو المرح وبالفعل أمسك ورقة أخرى ووضعها بهمه وهو يتذكر صديقه الغائب ببديهته الحاضرة ومرحه المتقد وفكر قليلاً ثم بدأ يكتب .. الكتابة بأصبع واحد مرهقة بيد أن فكرته المرحة مغريه :

أخى علي كيف حالك وحال أولادك نحن هنا والحمد لله بخير ولا تنقصنا سوى رؤياكم ، أنا أجلس الآن فى غرفة الاجتماعات وحولى أعضاء التنظيم بكامل قواهم وقد كنا نخطط للعملية المقبله فأرسلت إليك أستشيرك! من أين سنشترى القنابل والمدافع والرشاشات والذى منه يقولون أن لديك بياناً ببعض الجهات التى تبيع أجهزة الدمار الشامل فعجل يا صديقى بإرسالها إلينا عن طريق أى طرد بريدى من عندك لأن القنابل التى معنا

قاربت على النفاذ وكم تعلم فإن العملية المقبلة خطيرة وتحتاج منا إلى كل إمكانيات التنظيم فى الداخل والخارج وعليك باعتبارك حلقة ا لوصل بيننا وبين الزعيم الكبير فى الخارج أن تمدنا كذلك بما تيسر من التمويل الخارجى أرز وسكر وصابون وزيت حتى يمكننا أن نحتفل بفرح أخت علاء بكره ، وبالمناسبة الجميع هنا يهدونك السلام ، وبانتظار رسائلك والسلام عليكم ورحمة الله أخوك عبد الله .

جلس يتأمل الرسلة وهو يضحك ويتخيل (على) وهو يقهقه على أفكاره تلك وهما اللذان لا يجرؤان على قتل فرخة ! .

جميع من بالشقة يضحك وكأنهم قرأوا الرسالة أيضاً التفت إليهم فى شك .. ماذا بهم .. الورقة لا تزال فى يده عندما طرق الباب طارق .. طاخ طاخ طاخ .. ماهذا ..

افتح .. افتح بسرعة .. سكت الضحك .. وران الصمت وكأن أحدهم لم يكن يضحك منذ لحظة سارع علاء ليفتح الباب فإذا بثله من المخبرين يقتحمون المنزل فى سرعة وينتشرون فيه .. أسقط فى يد عبد الله.. وقف ذاهلاً ماذا يحدث .. وتذكر الورقة ورقة الخطاب فى يده .. رباه ماذا أفعل وكاد يغشى عليه وهو يرى

مخبراً يقترب منه .. ومرت الأحداث أمام عينيه بسرعه وهو واقف .. ألقى القبض عليه وعثروا معه على الخطاب أجروا تحقيقاً سريعاً .. أصر على أقواله يبدو أنك لن تتكلم بسهوله .. والله يا باشا دى هى الحقيقة الموضوع هزار فى هزار .. سأعرف كيف أخليك تنطق .. التعليق من اليد حتى تكاد تشل .. ثم من الرجل حتى تكاد تقطع .. ضرب السوط على البطن وعلى الظهر .. ثم الكهرباء .. وما أدراك .. رعده تسرى فى البدن لا تقتل لكنها تترك أعضاء الجسد فى خدر مرضى يشعر بالإحباط والمرض .. وتتكرر الدائرة .. « مين هما أعضاء التنظيم التانين » « ومين هما اللى فى الخارج وأى عملية كنتم ستجرونها » « وماذا تقصد بالأرز والزيت والسكر والصابون » تكلم .. انطق .. خلع الأظافر .. إطفاء السجائر فى أماكن حساسه الخطبه عرياناً ثم التهديد بهتك العرض .. رباه أعنى المخبر يقترب منى .. يطوى الصفحة بسرعة .. ويقذف بها على غياهب الدرج أمامه ..

ويتنفس فى ارتياح .. ما سبب وجودكم فى الشقة ؟ قال ضابط التحقيقات ..

قال علاء والله فرح أختى بكره ياباشا والجماعة معارفنا

والناس لبعضها ..

سكت فى شك وهو يتأمل فى لحى بعضهم .. ثم توقف بصره أمام أحدهم .. إنت مطلوب عندنا .. مش كده .. كاد الشاب أن يبول على نفسه .. أنا والله ما أنا يا باشا .. مش دى صورتك .. أبداً مش أنا .. دا أنا (طخين وده رفيع وشعره كبير مش أنا والله) .. وعبد الله يقف فى هدوء مهما فعلوا فيه فقد نجا من مصيبة الرسالة وماهى إلا ساعة حتى خرجوا جميعاً إلى منازلهم فقد كان علاء يعرف مأمور القسم ! .

خطوات تحت المطر

كان يلبس نعله الصيفى فى قدميه فهو لا يملك غيرها تقريباً كـان يرتجف من البـرد .. برد الإسكندرية القـارس ، ويسـيـر فى خطوات وئيدة .. كان شاباً ولكنه يخشى من السقوط على الأرض بسبب البلل .. نظر حوله فوجد تلالاً من الرمال حول أطلال من البيوت وقد اكتست الأرض بتراب حوله المطر إلى مساحات من الطين تداعب أقدام العابرين أو تطلخ ثيابهم ، والشارع قد استحال إلى بحيرات صغيرة تصادف حفراً لا يخلو منها الطريق ، تعمل كفخاخ لمن تسول لهم نفوسهم العبور فوقها ..

أما صاحبنا فهو يسير فى طريقه بعيني خبير يعرف أين يضع قدميه .. يسير على جانب الطريق وإن كان يعانى من لزوجة الطين ..

على بعد خطوات منه وجد رجلاً ينظف مجارى بيته التى انسدت بفعلُ المطر وقد شمر « بنطاله » إلى ركبته واستخدم كل ما وجده من المواد ليعالج بها طول « الماسورة » وعمق الانسداد .. وماهى إلا لحظات حتى مل المحاولة والفشل .. فوقف قريباً من البيت يائساً ..

غطاء « البالوعة » لايزال مفتوحاً وصاحبنا قد تجاوز الرجل واقترب من غايته .. عن بعد لمح موكباً .. رجل مهيب سمين يرتيد جلباباً وثيراً .. وعليه عباءة سوداء .. ويرتدى حذاءً فى قدميه ويتبعه إثنان نحيفان .. كان يشق طريقه فى وسط الشارع وكأنه يتحداه .. وتنزل قطرات المطر الخفيفة على عباءته فيسارع أحد أتباعه بفرد شمسية يحميه بها من المطر فى نفاق .. عيون من بالشارع ترمقه : أين تراه يذهب ؟ وصاحبنا ينظر إلى قدميه وهو يخطو فى ثقة .. ويحسده على حذائه .. التقى الموكب به .. صدرت « طرقعة » من نعل صاحبنا بسبب التصاقه بالطين .. نظر المهيب إليه وأطلق سعالا عالياً كأنه يعلن للملأ أنه موجود أطرق صاحبنا منشغلاً بانتزاع نعله من الطين .. وخيال الحذاء لا يفارقه وما هى إلا لحظات حتى سمع صياحاً التفت فوجد المهيب قد سقط فى حفره « البالوعة » ومساعداه يصيحان ويرفعانه وقد ابتل بالطين والماء إلى أخمص قدميه وحذاؤه قد لطخه الطين .. أما صاحب « البالوعة » فقد انكمش فى مكانه .. ولعله راح يواسيه كما فعل بعض المارة .

هــــروب

اهرب .. اهرب .. اجـرى .. هكذا قـالوا .. صـدر الأمـر بالإنسحاب .. وجرى ثلاثتهم إلى أين .. ؟ لا يدرون .. الصحراء واسعة قد امتدت لتملأ الآفاق من حولهم .. كثباناً صفراء باهتة .. وأحجاراً صماء صلدة تتحدى أقدامهم الفارة .. ورمالاً تغوص بهم .. تريد أن تبتلعهم والشمس فوق رؤوسهم .. ليوم من أيام شهر يونيو – تلفح وجوهم .. وتخرق رؤوسهم وتحرق سواعدهم ..

جروا ساعة .. فأنهكهم التعب .. اقتربوا من بعضهم .. كأطفال جمعهم رحم أم .. ماذا سنفعل ؟ .. ماذا سيفعلون ..

لقد انهار كل شيء في لحظة .. فلم يلقوا بإسرائيل في البحر .. لا إسرائيل ولا من وراء إسرائيل .. إنما ألقوا هم في الصحراء القاحلة كل ما لديهم من طعام وشراب لا يكفيهم لساعات . ليس لديهم « بوصلات » لتهديهم الطريق أحدهم كان على علم بالإتجاهات .. حاول أن يقودهم مشواً قليلاً .. ثم تساقطوا واحداً تلو الآخر .. أعياهم التعب .. وأتعبهم الإعياء .

وجن الليل .. وفي الليل أصوات وآهات .. كأن الكون كله

يتألم .. يبكى .. تذكروا أن لهم رباً يجلؤون إليه .. وكم نسوه .. فى خضم الشعارات والأهواء .. لم يكن معهم ماء للوضوء .. فقال أحدهم : نتيمم .. قالا : كيف .. قال : لا أدرى .. فتمعكوا فى التراب .. وصلوا .. استراحوا وناموا ..

وكان الفجر مختلفاً .. أزير الطائرات فوق رؤوسهم .. هل سينقذوننا لاريب إنهم يبحثون عنا .. برزوا للناظرين .. ورفعوا أيديهم وأصواتهم .. اقتربت منهم طائرة « هليكوبتر » .. البسمة تنطفئ .. ليسوا هم .. إنهم اليهود .. اهرب .. اهرب ..(اجرى) .. أطلقوا عليهم النار .. فسقط أحدهم جريحاً .. لم يلتفتوا إليه .. الطائرة تقترب تكاد تصطدم برؤوسهم وهما يغيران اتجاههما .. يجرى أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال .. وتفرقا .. أحدهما وجد صخرة فاحتمى بها .. والآخر انبطح أرضاً وبعدت الطائرة .. هل كان يتسلى أم وجد جمعاً أكثر منهم .. تنفسا الصعداء .. وعاد لصاحبهما أُصيب فى كتفه ورجله .. جسمه خليط من حمرة دمائه .. وصُفرة الرمال .. زرقة الجراح .. الألم يعتصره .. اتكأ عليهما .. ساروا .. الشمس بدأت تنشط .. والعطش بدأ يدب .. الماء .. كم هو جميل ذلك السائل الذى لا لون له .. أين هو الآن .. مازالوا يمشون .. أصوات من خلفهم ..

التفتوا فى فزع .. سيارة كبيرة مكتظه بالمصرين .. هل جاءوا أخيراً .. نزل جنود .. أشهروا السلاح .. إنهم يهود .. لقد وقعنا فى الأسر .. ذابوا فى السيارة .. الجريح يتألم يتأوه .. يضربه أحد الجنود يصرخ من الألم .. ويمسك رأسه .. يوسعه ضرباً .. بح صوته من الصراخ .. أزعجه فقتله ..

نزلوا من السيارة .. أوقفوهم كتبوا أسماءهم سألوهم عن كل شىء .. أبى أحد الأسرى فمزقوه إرباً .. فعلمتهم أشلاؤه أن يتكلموا .. أسماء القادة .. مواقع الأسلحة .. أحد أصحابنا استغل غفلة فهرب لم يعبأو به .. جرى .. جرى .. وكأنهم يجرون خلفه .. تعب .. جلس عاود السير .. عطش .. تاه أظلمت الدنيا فى وجهه مع ظلمة الليل .. خاف .. لكنه مشى .. عطش .. وجد أسلاكاً شائكة .. اخترقها .. إنه نفس المعسكر .. آه .. نفسه هكذا قال : لقد دار فى تيهه حتى عاد إليه يريد ماء .. أين من كانوا معه ، أمسك به الجنود .. اقتادوه إلى قائدهم .. أريد ماءً .. ها هو الماء .. أمسكُ أمامه بكوب من ماء .. وسكبه نقطة نقطة .. منعوة من لعقه من الأرض .. تكلم أولاً .. تكلم .. وتكلم .. تيبس حلقه .. أريدا ماءً .. نظر إليه القائد ببرود وأطلق على رأسه طلقه .. فاختلطت دماؤه بقطرات المياه المنسكبة على الرمال .

واحد على ستين مليونا

كانا واقفين فى محطة « الأوتوبيس » فى وقت الذروة ، ينتظران مكاناً لقدم واحدة فى أى حافلة من الحافلات المزدحمة التى تمر بهم ، ومثلهم فى ذلك كمثل كسر الألف الذى يقف على المحطة لنفس الهدف .. بعد محاولة فاشلة للركوب انطلق على إثرها « الأوتوبيس » دون أن ينالا منه ..

قال أحدهما للآخر : تحيرنى تلك النسبة الكسرية : واحد على ستين مليوناً ..

نظر الآخر إليه بلا مبالاة : ماذا تقصد ؟ قال :

ألا ترى معى أن هناك فرقاً بين أن نقول : واحد من ستين مليوناً ، وبين أن نقول :

واحد على ستين مليوناً ..

قال : وما الفرق ؟ إن النسبة لا تتغير ..

رد عليه : أبداً لو تأملت ذلك لوجدت الفرق واضحاً .. قال وقد أتعبته محاولة التفكير : يا عم .. عايزين نركب الأتوبيس .

– قال بهدوء : وماله ، ما حنا بندردش .

– قال : أشم منك رائحة الفلسفة .

– أبداً مجرد تأملات .

– التأملات الفكرية فى المسألة الأوتوبيسية ! .

ضحك قائلاً : سمها ما شئت ، ولكن فكر معى فى السؤال مرةً أخرى : ألا ترى هناك فرقاً بين إطلاق النسبتين واحد من ستين مليوناً وواحد على ستين مليوناً .

– بالنسبة للرياضيات فالمعنى واحد .

– ولكن بالنسبة للواقع يبدو الفرق واضحاً .

– تقصد الفرق بين من وعلى .

– بالضبط .

– أظنها فزورة نحوية .

– ليس تحديداً ، ولكنها فزورة واقعية .

هنا قطع الكلام وصول « الأوتوبيس » آخر .. جريا خلفه .. دخان العادم الأسود يزكم الأنوف الراكضة خلفه ويملأ عيونهم .

أفلحا هذه المرة فى الصعود إليه .. وبينما « الأوتوبيس » يتحرك منطلقاً فى الزحام إذا بيد تمتد من الشارع لتمسك بملابس أحد صاحبينا .. ساعدنى يابنى .. رجل مسن .. أمسك

به بصعوبة ، ساعده صاحبه هيا ندخل .. الأوتوبيس من داخله صورة للمحطة .. طلبة وطالبات .. موظفون وموظفات .. قرويون وحضر .. كانت الخطة أن يجتازا الأوتوبيس من آخره ، حيث باب الصعود ، إلى أوله حيث باب الهبوط ولم يكن ذلك منهم حباً للنظام ، ولكنه إيثار للسلامة .. سلامة من كلمات غاضبة من « الكمسرى » أو السلامة من إرتطام أمواج النازلين بأمواج الصاعدين .. تبدأ إذن رحلة النزول من لحظة الصعود ، قالها لصاحبه ، فرد عليه : تماماً كحياة الإنسان ، ما إن يحلّ بالأرض حتى يبدأ رحلة الإنتهاء ، كلما مضى يوم اقترب من نهاية أجله .. ابتسم بصعوبة ، وهو يقول : عدت إلى الفلسفة .. قالها وهو يشعر بكتلة لحم تعصره .. التفت فى ضيق .. شاب سمين تفوح منه رائحة العرق يعبر مسرعاً لعله يريد أن يدرك النزول فى المحطة المقبلة .. أحس بأصبع تعبث فى جيبه .. هل سيسرقه أحد؟ امتدت يده سريعاً لتمسك بالمحفظة فى ذات اللحظة التى اختفى فيها العبث .. تراه الشاب السمين أم غيره ؟ .. نظر إلى الخلف سريعاً ثم عاد وتحسس المحفظة مطمئناً .. وهو يبتسم فلم يكن فيها شىء ! ..

امرأة مسنة تصحب طفلاً وطفلة فى حنان ، وتجعل فى جسمها الهزيل درعاً بشرياً هشاً يقيهما الزحام ويسارع أحد الشباب ليقف لها متخلياً عن كرسيه لتجلس متمتمة بكلمات شكر ودعاء ليقف هو قريباً يقرأ فى كتاب الله ..

الشاب السمين يصل إلى اختناق مرورى .. كتلة أخرى شبيهه به .. يرتفع صوته .. اصبر .. اصبر عايز ألحق .. وأنا مالى .. يرتفع صوتهما .. يسارع المحيطون بتهدئته ويمر الشاب السمين قروى حمل « خلجاته » يسأل عن محطة نزوله ، كلما تحرك بضع خطوات ، والناس بين مرشد له ومخفٍ لسخريته من إلحاحه وملابسه ! .

همس صاحبنا فى أذن صديقه : كل واحد منهم عالم وحده .. له أفكاره اهتماماته .. كل واحد منهم يعيش الحياة بطريقته لا يجتمع معنا إلا فى ذلك « الأوتوبيس » ثم يعود لذاته ولإهتماماته ، هكذا نعيش جميعاً كل واحد منها واحد من ستين مليوناً .

يجيب صديقه برأسه إيجاباً أعجبته المقارنة التى كانت تحمل أفكاره .. وتأمل فى الركوب حوله : ما بين صاحب أسرة قد عاد

من العمل يحمل معه « بطيخه » لعله يقتطع من حظ نفسه فى ارتداء لباسٍ أفضل من ذاك الذى يلبسه ، ويبدو عليه القدم ، ليطعمها عياله .

وذاك القروى البسيط البرئ فى كلامه .. شاب يقف بقرب فتاة وهى تلتفت تجاهه بضيق وقلق .. وهذا رجل يحمل شنطة يبدو عليه الجد .. وهذا شاب وضىء الوجه مشرقه قد انزوى فى ناحية يقرأ فى كتاب الله .. ثم قال فى نفسه : خليط عجيب من البشر ترى هل يجمعهم شىء ؟..

أفاق من أفكاره فزعاً على صوت احتكاك إطارات « الأوتوبيس » بالأرض ، وصراخ فزع انطلق من أفواه النساء والأطفال لما مالت الحافلة منحرفة انحرافاً شديداً قبل أن ترتطم بجسم ما ، محدثةً صوتاً مرتفعاً ..

طارت البطيخة من يد أبى العيال ، لترتطم بالشاب الملتصق بالفتاة وتسقط فى « خلجات » القروى والجدة تكفكف الصغيرين الذين أجهشا بالبكاء ، وشنطة الرجال الجاد وقعت منه على الأرض فانفتحت مبعثرة أوراقها لتندهس تحت أقدام الناس ، وهو يجمعها فى استعجال .. الفتاة تدفع عنها الشاب .. ابعد عنى ..

والشاب السمين وقع على السائق بعد أن وصل إلى غايته ، والسائق يتأوه .. كاد المصحف أن يسقط من يد الشاب الوضىء الذى تداركه بحرص ، والرجل العجوز يصيح وقد وقع عليه أحد الركاب .. رجلى لقد كسرت رجلى .

على جانب الطريق توقف الأوتوبيس .. مجرد حادث بسيط .. ارتطام بسيارة « شبح » تسبب فى كسر الرفرف نزل الصديقان وانضما إلى حشد الوقوف .. همس أحدهما فى أذن الآخر .. هذه السيارة بمليون أو أكثر ، ترى بكم سيتم إصلاحها .. قال : من يركبها يقدر على إصلاحها ..

كان بالسيارة شاب يرتدى ملابس مزركشه وبجواره فتاة أوروبية ..

نزل من السيارة .. فين الحمار السواق ؟ ..

السائق في مثل سن أبيه .. نزل مندهشاً .. والله يابيه مش غلطتى .. أنت اللى « كبست عليا » ..

آه يا رجلى .. الرجل العجوز ينزل متأوهاً .. لا أقدر أن أسير عليها ..

الفتاة الأجنبية تنزل إلى جوار « البيه » لتتفرج على المشهد

« الفولكلورى» .. أنت عارف اللى عملته يتكلف كام .. يسكت السائق .. يهمهم الناس فيما بينهم : هوه اللى غلطان .. ماله متكبر كده ليه .. يرفع القروى صوته : المسامح كريم « يا باشا » معلهش .. يؤيده الرجل العجوز : أيوه يا بيه دا رجل غلبان ..

أبو بطيخة : ده مسكين أبو عيال .. يشيح بوجهه فى كبر ويحادث فتاته منشغلاً

« ما تخلونا نمشى بقى » .. صوت يتدارى فى الجمهور ..

ادفع خمسة آلاف جنيه .. شهقة صدرت من أفواه الجميع .. خمس تلاف جنيه ..

السائق يكاد يبكى:يابيه مش غلطتى والله حضرتك سيادتك فخامتك اللى كسرت عليا ، وهو ده اللى حصل كان فيه ناس على الرصيف ، وكان ممكن الأوتوبيس يشيلهم لولاستر ربنا ..

يرد « البيه » : أنت باين عليك بتتكلم كثير .. ثم اندفع إلى السيارة وأمسك بالتليفون « المحمول » وطلب رقماً وظل يتحدث .. والفتاة التقطت من شنطتها « كاميرا صغيرة » وظلت تلتقط صوراً للحضور والسيارة وهى تبتسم .. المرور خلف السيارتين قد اختنق وأصوات الأبواق ترتفع من مسافات بعيدة وصوت سيارة

شرطة يأتى من بعيد .. ومع دنوه .. خفتت الأصوات فلا تسمع من الوقوف إلا همسا نزل رجال الشرطة وجاء ضابط شاب صارخاً :ما هذا .. أخذه « البيه » جانباً وتكلما سوياً ثم عاد الضابط فبق السواق ..

قال الشاب قارئ القرآن : ياحضرة الضابط إنه لم يفعل شيئاً كل ما فى الأمر إن « البيه » هوه اللى خبطه .. الضابط : أنت تسكت خالص ، ومش عايز حد يتكلم .

رد الشاب : إحنا بنبين لك الحقيقة ..

الضابط : هاتوا الواد ده .

القروى : ليه بس ياباشا ، هو يعنى الكلام حرم ..

الضابط : وهاتوا ده كمان .. الجنود ينفذون الأمر .

ساد الصمت .. الضابط : حد ثانى عايز يجى .. لا أحد يتكلم .. يتجه الضابط ناحية « البيه » : أسفين لإزعاجك يا باشا ، أكيد ضياع كثير من وقتك إنت وضيفتك العزيزة .

البيه : شكراً شكراً .

وينطلق الركب ويظل « الأوتوبيس » بلا قائد ، ويهمس صاحبنا فى أذن صديقة الفيلسوف : يبدو أننا سنكمل طريقنا على

الأقدام لأننا « من » الستين مليوناً ولسنا « على » الستين مليوناً ، فيرد عليه : وهناك أيضاً نسبة كنا نسيناها .. سأله ماهى فأشار إلى سيارة الشرطة التى تحمل الأبرياء .. نسينا واحد إلى ستين مليوناً .. قال : صدقت .

وفى الصباح كانت (مانشتات) الجرائد تحمل الخبر التالى : القبض على تنظيم إرهابى كان يعد لإغتيال مجموعة من السياح ، وألقت قوات الأمن القبض عل ثلاثة من أعضاء التنظيم أثناء محاولتهم تنفيذ جريمتهم أثناء مرور سيارة تقل إحدى السائحات وقد تعاملت قوات الأمن معهم وألقت القبض عليهم ، وأحدهم سائق فى النقل العام ، والثانى قروى عاطل ، والثالث طالب فاشل .. ولا تزال التحقيقات مستمرة لضبط باقى أعضاء التنظيم .

رسالة من عويس فرحان

قلت له رسالة تلقيتها ولا أدرى ما أفعل فيها ولكنى اجعلها بين يديك

« السيد المحترم /

تحيــة طيبــة وبعــد ،

أبعث إليكم تلك الرسالة من غياهب السجون بالولايات المتحدة الأمريكية لعلى أجد من السلطات العادلة لديكم الرغبة فى مساعدتى أو التوسط لدى السلطات الأمريكية للنظر فى مشكلتى ومشكلتى هى أننى يشبه اسمى اسم المدعو لويس فراخان والذى دعا إلى مسيرة مليونية شارك فيها السود وجماعة أمة الإسلام التى يتزعمها - كما تعرفون - واعترف لكم أننى تحمست لتلك المسيرة وعندما كنت فى الطريق إليها إذا بمدرعات كبيرة تملأ الشوارع وجنود مكافحة الشغب على أتم الاستعداد وما أن وصلنا إلى هناك وبدأنا فى التجمع حتى انهال علينا الجنود بالرصاصات والقنابل المطاطية وقنابل مسيلة الدموع والعصى الكهربائية فصار الأمر إلى هرج ومرج فهربت من المكان ..

وفى اليوم التالى طلعت علينا الصحف بأخبار عن محاولات

الشعب التى كنا نخطط لها وكيف تدخلت قوات الأمن لإفشال محاولتنا الآثمة لزعزعة الاستقرار فى البلاد والحض على كراهية النظام ، ثم جاء دور بيان وزارة الداخلية : إن شرذمة قليلة من ذوى الأفكار المتطرفة أرادت أن تهدد الأمن القومى والسلام الاجتماعى وأن تفرض آراءها بالإرهاب وبالضغوط المختلفة ، لذا فقد تدخلت أجهزة الأمن بكل لطف وطلبت من المتظاهرين الإنصراف راشدين ورفض البعض فقامت قوات الأمن بالتعامل معه ..

وبعد ذلك أخذت الصحف تتحدث عن التطرف والإرهاب وجماعة « أمة الإسلام » التى يرأسها لويس فراخان وأفكارها المتطرفة التى تدعو إلى العداء مع دول صديقه - اسرائيل - ثم طلع علينا الرئيس كلينتون بمؤتمر صحفى أذاعته وكالات الأنباء العالمية وقال فيه : إن هناك قوى شريره تتربص بأمريكا وأنا أحذر من تلك المؤامرات التى تريد أن تعصف باستقرارنا ..

وألمح إلى أن السودان قد يكون وراء تلك المسيرة لأن أغلب من فيها من السود وجاء يوم عاصف بعد ذلك المؤتمر ففوجئت بزوار الفجر يداهمون بيتى ويأخذوننى على أن اسمى مشابه لاسم

فراخان ، وليس كذلك فقط فأنا لست أول من حدث له هذا ، فقد أخذوا ما يكل جاكسون شكاً منهم أنه شقيق جيس جاكسون مرشح الرئاسة الذى شارك فى المسيرة ، وكذلك مطلوب القبض على بادن باول « مؤسسة حركة الكشافة » على أساس تشابه اسمه مع كولين باول الذى شارك أيضاً فى المسيرة ، فقد قررو أخذه كرهينه ليسلم كوين نفسه ! .

والآن نحن نطلب تدخلكم السـريع لدى السلطات لأننا سنواجه تهمة قلب نظام الحكم وسنقدم إلى محاكمة عسكرية بهذه التهمة : يعنى قولوا لهم أنا فرحان مش فراخان ، وشكراً لكم ».

طويت الرسالة ثم نظرت إليه وهو فاغر فاه ..

الرحيل (*)

صفير القطار يدوى فى الآفاق الملبدة بالغيوم ليوم من أيام الشتاء القارس .. درجة الحرارة تحت الصفر بكثير الشمس اختفت خلف كتل السحاب السوداء وكأنها تستحى من الظهور .. ولكنها لم تبخل ببصيص من الضوء .. يعطى مزيجاً من الأمل والتربص خطوات ثقيلة كثيرة تقترب من منزلنا .. انكمشت بجوار أختى .. أحتمى بها .. كنت صغيراً .. لم أتجاوز عشر سنين أصوات الدق على الباب تكاد تخلعه من مكانه .. إنهم الروس .. هكذا قالت أمى بهلع .. وسرعان ما امتلأ البيت بالجنود أسلحتهم الماضية فى أيديهم تلجم أفواه من يريد أن يعترض .. إنه الرحيل .. عيونهم الزرقاء الباردة تتطلع إلى أفواهنا فتتجمد الكلام على الألسنة .. ولحداثتى وقتها لم أفهم ما يريدون ولكن عرفت معنى ما يحدث من دمعات جامدة تحجرت فى مقلتى أبى .. لقد حدثنا من قريب عن جارنا الذى طلبوا منه أن يمر على المصحف فأبى .. فقتلوه .

أصوات الجنود تعالت بجمل رتيبه حفظوها من كثرة ترديدها

(*) مستوحاه من ترحيل المسلمين فى روسيا إلى سيبريا إبان حكم الطاغية (استالين) .

.. هيا بسرعة أمامكم نصف ساعة ..

قال أبي: ولماذا لا تتركونا في أمان ضاقت عينا الرفيق .. إنها أوامر ستالين .. لابد من تفتيتكم .. قال أبي: لقد ساعدناكم .. وتركناكم تدخلون الديار أملاً في مستقبل منيتمونا به ..

أدار قائدهم ظهره وكأنها إشارة لانتهاء الكلام .. وقال في اقتضاب لا تضيع وقتاً .. ليس أمامك إلا نصف ساعة ..

بدأت أمي تلملم ما تستطيع من ملابس وأدوات وأُمرت أختي أن ترتدي ملابسها وأن تساعدني في أن نجمع حوائجنا في شنطة صغيرة .. أسرعنا إلى حجرتنا .. وسألتها هل سنرحل فأجابت باكية : نعم .. قلت وهل سنترك البيت .. قالت ولن نعود ثانية .. لن نعود .. وأدركت ما يحدث لن نعود وسنترك بيتنا بحجراته الأربعة.. ولن نلعب أمام المنزل مع صديقي(شاميل) .. ولن نجري في الحقول القريبة نقطف منها ثمار الكرز والخوخ ، ولن نذهب إلى المسجد القريب خلسة مع أبي كما كنا نفعل ..

ولماذا لا نجلس هنا لا نريد الرحيل قلتها في عفويه لأختي .. فما ازدادت إلا بكاءً .. وهي تلملم حوائجنا .. جريت على صندوق لعبي .. أريد أن أخذه كله .. قالت أختي .. لن تستطيع

أن تحمله .. وبكيت .. فربّت أختى على كتفى .. ومدت يدها فاختارت بندقيتى التى كنت ألعب بها مع شاميل .. إنها بندقية من الخشب ولكنى كنت أحب اللعب بها .

صوت القطار .. لا يزال يدوى .. ولهجات الجنود تزداد حدة .. كم لصوت القطار من معانٍ .. كانت تدور فى ذهنى وكيف أتمنى أن أركبه ولكن لم يحدث أبداً أن خرجنا من داغتسان .. صوته اليوم مختلف .. ازداد حده تكاد تصم أذنى ..

خــرجنا من المنزل فى طابور بين صــفين من الجنود .. يستحثون خطانا على السير .. انضمـمنا إلى طابور طويل .. أطول من القطار .. إنهم أهل قريتنا يحملون أمتعتهم جميعاً .. هذا جارنا العجوز وزوجته كم كان يبتسم لنا عندما نمر به أو نلعب حوله .. إنه يحمل حوائجه فتنوء بها يداه الكليلتان ويدفعه أحد الجنود من ظهره ليسرع السير فيقع على الأرض ويختلط بكاؤه بطينها .. فيحمله أبى .. وهذا (شاميل) ووالده يسيران أمامنا .. يجره والده من يده وهو يبكى ويمد يده نحو بيته كأنه يريد أن يأخذه معه .. وذاك شاب لا أعرفه استفزه الجنود بكلامهم وصفعاتهم فأمسك عصا يريد أن يدافع عن نفسه .. فأطلق عليه

الجنود النار وسقط مضرجاً بدمه .. اختلط دمه بالأرض .. فاحمر لون الطين ..

وها أنا أسير خلف أختى وأمام أمى أحمل حوائجى الصغيرة أعثر فى مشيتى ولكنى أخاف من بطش الجنود .. فأجد لنفسى طاقة للسير كعجلات القطار التى كنت أجلس اراقبها فى غفلة من أبى صوت القطار يدوى وكأنه ينادى علينا وقد استحال صوته إلى طنين فى أذنى .. وتحولت صورته الأثيرة إلى وحش جبار يوشك أن ينقض على فريسته .. كنت أحلم بركوبه .. وها أنا على بعد خطوات منه .. ولكنى لست سعيداً .. لا أريد أن أراه ..

وركبنا القطار .. وارتفع منه نحيبنا .. فلا أدرى أكان صوت البكاء أعلى أم صوت القطار .. ازدحم القطار وضاقت الأنفاس ومرت ساعات قبل أن يتحرك كلّت فيها قدماى من الوقوف وعيناى من البكاء .. ربت أبى على كتفى وهو ويواسينى بكلماته الحانية قلت لماذا نرحل ياأبى ؟ ، قال : لأنا وثقنا يوماً بهم ، والله نهانا عن ذلك قلت : وهل سنعود ؟ سكت أبى .. وبكيت .

القطار ضيق من الداخل .. وهانحن نؤقلم أنفسنا فيه .. وهو خال من أى شىء .. فكنا ننام على الأرض .. وقد فرشنا أمتعتنا

.. ولم يكن يزعجنى إلا أصوات صياح الجنود عندما يأمروننا بشىء .. لقد كانوا يصيحون دوماً يطالبوننا بالهدوء وهم المزعجون ..

أما كيف كنا نأكل .. ففتات خبز يلقونه إلينا فى صبيحة كل يوم نتقاسمها بيننا كتقاسم الذهب ..

بعد يوم همست أختى فى أذنى حياءً .. لا أدرى ماذا أفعل لها .. لقد اعتدت على أنها هى التى تساعدنى .. قلت لشاميل .. هيا نحفر هنا حفره واخترنا مكاناً منزوياً .. وأخذنا نحاول الحفر فيه وهيهات .. حتى انتبه الرجال إلى فكرتنا فساعدونا .. وتبادلوا الحفر .. وتمكنا أخيراً من إنجاز المطلوب .. فتحة صغيرة ذهبت لأختى منتصراً وأقامت النساء حاجزاً بشرياً للراغبات منهن ..

استيقظت بعد نوم أزعجه هز القطار .. على صوت جارتنا تبكى وتنتحب لقد مات جارنا العجوز .. زوجها وظلت النساء تواسيها .. وانزعج الجنود لتلك الأصوات .. فانهالوا علينا ضرباً بكعوب البنادق فثارت ثائرة ثلاثة من الرجال فقتلوهم .. وخفتت الأصوات .. وأخفينا جثث الموتى الأربعة يوماً حتى ارتفعت الروائح الكريهة منها .. فاضطررنا لإلقائها من القطار .. .

رأيت الموت .. وسمعت البكاء .. وأحسست بالقهر .. وشعرت بالظلم .. وإنزويت فى جانب القطار لا أتكلم حتى عندما كان شاميل يغرينى باللعب معه كنت أُشيح بوجهى عنه .. كنت أمضى الوقت أنظر من القطار الذى لا يتوقف عن المسير .. أنظر إلى الأعشاب تنكسر تحت عجلاته .. وإلى البيوت تجرى منه .. والأعمده تتداعى مبتعده عنه .. أمسكت بندقيتى الخشبية .. ورفعتها إلى القطار .. إلى أعلاه .. وأطلقتها .. لم يقف وأُطلق نفيراً كأنه يتحدانى .. أطلقتها ثانيه .. فسكت النفير .. لمعت عيناى .. وذهبت لأبى منتصراً : لقد أسكت القطار ببندقيتى .. نظر إلي مبتسماً .. سألته هل ستعود .. قال ربما يوماً ما .

عينة دم

أخذوا منهم عينات دم .. وأجرو كشفاً طبياً دقيقاً . لأول مرة يفعلون ذلك .. همس فى أذن صاحبه : .. ولماذا هذه العناية .. هل قرر اليهود أن يشفقوا علينا رد عليه لعلهم سيصوروننا ليظهرو للعالم أنهم أصحاب حضارة ..

كشوف طويلة أمام الطبيب يكتب فيها أسماءهم .. سأل أولهم : كم عمرك .. فكر قليلاً ثم قال : لما أخذتمونا .. كان عمرى ثلاثة وعشرين عاماً .. وكأن الزمن قد توقف يومها .. فلم يدركم مر عليه منذ أن وقع فى الأسر .. أيام تشبه بعضها .. طويلة .. مليلة .. الليل يجر النهار والنهار يسلم إلى الليل .. تحدث مع صديقه حتى انتهى الحديث .. حدثه عن بيته وأمه وأبيه .. وأخيه الأكبر وأخته الصغرى .. حدثه عن أيام السمر تحت ضوء القمر على شاطئ ترعة القرية مع الأصدقاء وتحدث معه صاحبه عند زوجته التى لم يزف إليها .. وهى تنتظره .. أكيد تنتظر .. أنا أعرفها وأعرف كم هى متعلقة بى .. « بس لو الريس يعرف » .. كان يقولها بعد كل حديث .. كأمل يتشبث به غريق .. فيسر

صاحبه فى نفسه : الريس !! .

طابور الصباح هو التغير الوحيد الذى يحدث .. وباستثناء بعض الصفعات الثقيلة والكلمات المسمومة والركلات المنتقمة .. فقد كانت النزهة اللطيفة التى يستمتعون بها أنه يعرفهم جيداً .. بأشكالهم .. فقد كان غير مسموح لهم بالحديث سوياً .. لم يكن أحدهم يحدث الآخر إلا خلسةً .. وفى الزنزانات فقط .. لذا كان من المألوف أن تجد من يجلس ويتحدث بصوت عالٍ مع نفسه .. فقد تمر أسابيع دون أن يختلس كلمات ليصبها فى أذن من يراه .. ومع ذلك استطاع أن يحدث صاحبه على مر السنين .

كان يصلى .. إذا نام السجان .. خلسةً حتى لا يراه .. فقد رأى بعينه كيف سأل الدم من رأس جاره لما رأوه يصلى .. كانوا يأكلون .. فتات الخبز الذى يلقى إليهم .. والماء الذى يقذرونه خصيصاً لهم .. ومع ذلك كانوا يستسيغونه .. أما اليوم فالحال مختلف .. لقد احتجزوه فى المستشفى .. يأكل أشهى الطعام .. ويذوق الفاكهة .. لم يرها منذ أن خرج للحرب لم يدر ماذا يريدون منه .. مرتَ عشرة أيام وهذا حاله .. ألم يأت المصورون بعد .. يساوره القلق .. يذرع الحجرة مجيئاً وذهاباً .. يأخذون منه عينه

دم وبول كل يوم .. يجرون « إشاعات » على المنطقة السفلى من جسده .

فى الحجرة المجاوره كان يرقد تاجر فرنسى .. تجرى له نفس الإجراءات يأخذون عينات الدم .. ويجرون الإشعات .. وفى صباح يوم استيقظ صاحبنا على صوت خطوات تتجه نحو غرفته .. هل هو الخادم .. لقد جاع بعد أن اعتاد على أنواع الطعام الجميل ترى ماذا سيحضر لإفطاره اليوم .. إنه الطبيب .. ومعه رجل آخر .. حقنوه بإبره غاب عن الوعى .. نقلوه إلى حجرة أخرى .. غرفة العمليات .. وأدخل التاجر الفرنسى فتحوا بطنه .. وأخرجوا كليته .. وبعد ساعتين خرج الأطباء .. وخرجت ممرضة تدفع سريراً إلى غرفة العناية .. وبعد فترة جاء عمال آخرون ليدفعوا سريراً آخر إلى المشرحة .

وفى الزنزانة .. كان صديقه يجلس منتظراً إياه .. ويحلم بزوجته .. وانتظارها له ، ثم يتنهد فى شوق ويقول : « بس لو الريس يعرف » .

العـرس

لقد كان يوماً مشهوداً .. قصر الأسره الأنيق قد ازدان بورود وازهار نشرت فى كل مكان .. وورود قد علقت على شكل قلب يحوى أول حرف من اسمى العروسين .

والأنوار تضىء المكان بألوان هادئه تبعث على البهجة والانشراح وفوق رؤوس المدعوين وضعت أجهزة تنشر عليهم العطور الفاخرة .. أما الكراسى التى يجلس عليها الناس فقد اختيرت بلون واحد يتناسق مع السجاد على الأرض وأم العروس وأخواتها يرفلن فى ثيابهن الجميلة ويبتسمن فى رقة للحاضرات .. وعلى طريق قد أنشأ خصيصاً وأحيط بالأنوار والورود .. خرجت العروس فى أبهى حلة وأتم زينة .. تتهادى بين المدعوات فى حياء وتتعلق أنظار الحاضرات بها وهى تسير فى خفه ودلال .. لتأخذ مكانها فى هدوء فى الكوشة .. التى تشبه كراسى الملوك .. ولتتبادل الإبتسامات مع صديقاتها والمهنئات اللاتى أحطن بها ما بين متحدثه ومتأمله .. وفتح « البوفية » بعد قليل لتنصرف إليه الحاضرات .. وليجدن فيه كل ما لذ وطاب .. الفواكة من كل

لون والمعجنات الحلوة والمالحة والتورتات الكبيرة من أشهر المحلات إلى أنواع الأطعمة واللحوم والدجاج من أشهى وأفخر الأصناف يصاحبها سلطات تفنن صانعوها فى تنويعها وتشكيلها .. وانهمكت النساء فى التذوق والبنات فى المزاح والمطايبه .

كنت أنتظر زوجتى خارج البيت .. وكان هناك بيت قديم بجوار بيتهم لم يدعا ساكنيه إلى الفرح على ما يبدو فكان أطفالهم يلعبون أمام البيت بملابسهم القديمة ويتطلعون نحو العرس بحسرة وأسى وانتهى العرس فى سلام وخلا العروس بزوجه .. وانصرفت الحاضرات وقد وزع عليهن علباً فاخرة مطليه بالفضة وعليها اسم العروسين وقد ختم عليها اسم شهير لدار أزياء عالمية .. جلست فى البيت أتأمل فى جمال تلك العلبة وأتعجب من دقتها .. وأسأل نفسى ترى كم تكلف توزيع مثل هذه العلبة على كل الحاضرات .. بل كم تكلف مثل هذا العرس ..

قالت زوجتى : إنهم كما تعلم من أسرة مرموقة كما أن لوالدها تجاره ناجحه فلابد أن تكون أعراسهم هكذا ..

وتذكرت يوم عرسى إذ لم أجد يومها ما أكرم به زوارى إلا أن أقدم مشروباً لكل منهم ومع ذلك كنا سعداء .. قالت : هكذا

الناس قد اعتادوا الإسراف فى المظاهر والشهوات .. لم عيض من ذلك الوقت إلا ثمانية عشر يوماً وكنت وقتها أتصفح الجرائد ولفت نظرى إعلانات تعازٍ كثيرة مشبوثة على أكثر صفحات الجرائد .. فاضطررت إلى قراءتها .. رباه ما هذا .. أحقاً ما أرى وأعدت القراءة أكثر من مرة حتى تأكدت من الاسم .. إنه هو بلا شك .. عروس الأمس ..

وجاءت الأخبار لقد مات فى حادث سيارة بعد أن كان يسير بسرعة كبيرة فانقلبت به سيارته .. وأصبح الفرح مأتماً وعادت زوجتى من العزاء لتصف لى حال العروس المسكينة التى صارت كوردة ذابلة .. كانت تظن فى يوم ما أنها ستظل زاهية إلى ما لا نهاية ولكنها فوجئت بيد تقطفها من مكانها لتحس بعد ذلك بمعنى الحرمان فى ريعان نضجها وتألقها .. كانت تجلس وكأنها لا تصدق ما حدث .. ولكنه قد حدث فى الحقيقة وأصبحت أرملة بعد أيام من زواجها وانقضت أيام الحداد بطيئة كئيبة على عكس أيام الفرح .. وانكمشت العروس فى حجرتها تجتر أحزانها وانفضت المعزيات سريعاً كما انصرفت المهنئات يوم الفرح .. وعروسنا فى مخبأها فى حجرتها قد اعتادت العزلة ..

قالت زوجى بعد إحدى الزيارات .. لقد كانت تجلس

وبجوارها قلم .. وأوراق وقد أمسكت القلم وهى سارحه لتكتب اسمه داخل اسمها .. فلما نظرت إليها احمر وجهها خجلاً وكأنها قد ارتكتبت ذنباً .. قلت مسكينة .. وكأنها تناديه أو تنتظره ..

ومرت أيام .. وخرجت الفتاة من عزلتها قليلاً وبدأت تفكر فى أعمال بر تقوم بها عن زوجها فاستقر أمرها عليأن توكل من يحج عنه وأن تتصدق عنه بصدقات جاريه ..

العلبة التى أهديت لنا فى الفرح ما زالت موجوده لونها تلاشى مع مرور أيام ..

ومرت أيام أخرى .. تلتها زيارة لزوجتى وقد نقلت لى أن الفتاة عينت امرأة كوصيفة لها تحادثها وتكلمها وليس لها من عمل إلا ذلك وتبسمت وتذكرت ما يحكى عن الملوك القدامى هم وأبناؤهم وبدات الفتاة تفكر فى إكمال دراستها الجامعية .. وبالفعل التحقت بإحدى الكليات النظرية .. وصارت مشاغلها أكثر .. وذات يوم اتصلت بزوجتى لتنقل إليها فى فرح نجاحها بتفوق .. وسرحت بخيالى وأنا أنظر إلى احدى بناتى تلعب بعلبه الفرح القديمة بعد أن زال لونها فأصبحت لعبة للأطفال .. وسألت نفسى هل ستتزوج مرة أخرى .. ربما .

ما أجملها !

كنت أسير وحدى فى الطريق .. حين لمحتها .. ما أجملها .. الشعر المتهدل على الجبين .. المشية الرقيقة .. العينان الزرقاوان .. تبدو كغادة بين أترابها .. وظللت واقفاً أنظر إليها وهى لا تعيرنى اهتماماً فيزداد بذلك ولهى بها .. ومضيت فى طريقى وخيالها لا يفارقنى .

وتمر أيام واعتاد على رؤيتها .. كلما مررت فى الطريق .. غادياً أو رائحاً .. أحلق فى آفاق عينيها الجميلتين وأراقب حركاتها وسكناتها .. وفى ذهنى فكرة تلح علىّ وأحاول أن أطردها .

أريدها .. أريدها لى أحتفظ بها عندى .. لا يراها أحد سواى .. أستمتع بجمالها .. بهدوئها .. بعينيها ولكن كيف السبيل إليها ؟! .

وتمر أيام وتعتاد هى على تنظر إلىّ وكأنها تعرفنى أتابعها بعينى فى ثقة .. وهى تنظر إلىّ بعدم اكتراث يزيد من رغبتى فيها ..

قلت لنفسى ولماذا لا أجرؤ على الحركة .. لماذا لا أفعل شيئاً .. إننى أشفق عليها .. وعلى رقتها وجمالها .. من الناس .. من

الطريق .. ولكن ماذا أفعل وماذا أقول لمن حولى .. لزوجتى .

وتمر أيام أتخذ فى نفسى القرار .. لابد من الحسم .. وأن جد فى الأمر أمر .. أعددت العدة فى نفسى لأقترب منها .. انتزعها من مكانها .. آخذها إلى البيت .. ولكن هيهات .. أبحث عنها .. فلا أجدها .. وتتعلق عيناى بكل مكان اعتدت على رؤيتها فيه ولا أثر لها .. أخذت ألوم نفسى .. أنا السبب تأخرت فى قرارى .. كان لابد أن أسارع إليها أن أنتشلها .. أين هى الآن .. أين عيناها الجميلتان .. وشعرها الأبيض الناعم .. وأخذت أطرد عن نفسى وسواس أن يكون مسها السوء .

وتمر أيام وبينما أنا فى طريق .. فإذا بها أمامى .. سبحان الله لكم تغيرت فى أيام معدودات أين البريق الذى فى العيون .. الشعر الناعم الجميل غير لونه غبار الأرض ..

ماذا حدث ؟ نظرت إلىّ نظرة كسيرة ..

مهما يكن !! سأحملها بين يدى .. أعوضها عن كل ألم مر بها .. ولن أعبأ باعتراض زوجتى .. كم سيفرح الأولاد بها .. اقتربت منها مددت يدى إليها .. أخذت تموء فى هدوء .. ثم أدرات ظهرها .. ومضت فى طريقها .. وألقت إلىّ نظرتها الجميلة .. وابتعدت وأنا أتابعها ببصرى .

خــواطر

نظرت إليه .. بعد أن انتهينا من الصلاة وقلت لنفسى كم هو متجهم .. أنه لايريد أن ينظر إلى أحد أظن أنه متعال .. نعم .. ألا تراه لا يكلم أحداً ولا يبتسم لأحد .

أظن أنه قاس .. بل ربما يعامل زوجته وأولاده بنفس القسوة التى ينظر بها إلى الناس ، وبالطبع سيعامل بنفس المنطق جيرانه وزملاؤه فى العمل .. بل ربما ظلمهم وضيع حقوقهم وقلت كذلك : إنه صورة سيئة للإسلام .. هو وأمثاله يعيشون فى أبراج عاجية ويظنون أنفسهم أفضل من الناس .

أنها ليست أول مرة أراه هكذا وإنما كلما رأيته من بعيد قفزت إلى ذهنى تلك الفكرة ، وكلما هم بالخروج من المسجد وقفت قبله كى أسبقه .. لا أريد أن يسبقنى ، أنا الذى سأقف فى الإمام وسيكون هو خلفى .. وهكذا ليتعلم هو وأمثاله التواضع وحسن الخلق ! .

علام هذا الكبر ؟ من يكون ياترى .. هل لأنه غنى ؟ .. وفى أى شىء سينفعه المال وهل مثلاً لكونه صاحب جاه ؟! فماذا

يفيده ذلك الجاه ؟ .

وقفت بعد أن ختمت الصلاة .. لأمارس هوايتى فى مسابقته .. كـان يسـبـقنى بخطوات ، أسـرعت الخطى .. أحس بى .. والتفت إلىّ .. والتقينا وجهاً لوجه ، قلصت شفتى وضاقت عينى .. مد يده يصافحنى وعلى ثغره ابتسامة عريضة .. وقال فى رقة : السلام عليكم .. كيف حالك ؟؟ غصت فى أعـمـاقى ، مـاذا كنت أقول عنه ؟ أستغفر الله .

دربندى خان [1]

أصوات الطائرات ترتفع تكاد تصم الآذان .. والأسرة الكبيرة قد انحشرت في سيارتين وقد امتلأتا بأجساد أفرادها .. وفوق كل منهـا يرتفع جبل من مـا اضطرت الأسـرة لحملة من الحوائج الأساسية لها .. فهم ينزحون هرباً من القصف الوحشى الذى تعرضوا له هم وكل من بقريتهم والقرى المجاورة من الأكراد ..

على المقعد الأمامى تجلس الجدة بجوار ابنها وتضع أصغر أحفادها على حجرها والسيارة تتعثر فى الأرض الزعرة التى يحاول الشاب أن يجتازها وتأبى إلا أن تعوق سيره .

والجدة تسرح بنظرها إلى تلك الديار التى خلفوها وراءهم وتلتفت فى قلق تراقب الطريق .. كانت تجلس فى البيت لا تخرج منه إلا قليلاً .. وقد أتعبها المرض مع تقدم السن فما زادها إلا قعوداً .. ولكنها مع ذلك كانت بلسم المنزل .. لا يملها الكبار ولا يتركها الصغار .. أما اليوم فإنه أول يوم تخرج من بيتها منذ

---

(١) وقعت أحداث هذه القصة فى ١٩٨٨/٩/٨ ، المكان : دربندى خان : «من أماكن الأكراد العراقيين».

سنوات بعد وفاة زوجها وكأنها فى عدة طويلة عليه ..

قال الابن (دارا) : انهم يسمون تلك العمليات بالأنفال هكذا قالوا لهم : اقتلوا الناس وأموالهم نافلة لكم ..

رد أخوه : وما ذنبنا نحن الأبرياء حتى يعامل بمثل هذه المعاملة الطفل الصغير على حجر جدته يتمهل ثم يسألها : يا جدتى متى نعود إلى المنزل .. لقد تعبت .. ولم لا يتعب وهم يسيرون على هذه الحال منذ عشرين ساعة .. فتجيبه الجده بقبله على خده .. يردف « دارا » الابن .. إنهم يطلقون النار وعلى عمق ٥٠٠ كم داخلى وبطول ٦٠٠ كم ومثل ذلك يحدث فى قراداخ السليمانيه « وكان مارسى زافوا » و « أحمد آوا » و « بالى سان » بأعماق مختلفة ما بين ٢٠٠ إلى ٤٠٠ كم : النار .. النار من كل مكان لم يفعلون هذا بنا .. ولم يجبه أحد .

ويضيف « دارا » : ويا ليتها النار وحسب .. إنهم يرشون الكيماوى قبل القصف .. إنها محاولة لإبادتنا ..

أصوات انفجارات وقصف تأتيهم من بعيد .. وتقترب .. إنها غارة جديدة .

قال دارا : ينبغى أن نختفى فى أقرب جبل .. إن السيارة

هدف سهل .. وبالفعل أشار إلى أخيه فى السيارة الأخرى فاقتربت السيارتان من الجبل وسرعان ما أخرجت الأم كمامات من القماش كانت أعدتها على عجل وحشتها بقطن عسى أن تغنى شيئاً من « الكيماوى » .

ونزلوا بسرعة الطائرات تقترب أكثر .. وخرجت النساء والأطفال هذه تحمل طفلها وتلك تحفز بنتها ودارا يقف مشرفاً على عملية النزول وإخوانه يحملون شيئاً من المؤن تحسباً لطول الانتظار وأخوهم الأكبر يبحث عن مخبأ خلف صخر أو كهف فى الجبل .

هم دارا أن يلحق بهم .. لكنه لمح خيال شخص داخل السيارة ماهذا إنها جدتى .. لم لا تنزلين يا جدتى .. أجابته بدمع صامت .. هيا أرجوك .. تعالِ .. كم كان شاقاً عليها أن تغادر السيارة بعد طول « تقرفص » فيها وكم كان شاقاً عليها أن تسارع كإسراعهم وهى المتعبة المقعدة وكم كان شاقاً على نفسها أن نسيها أبناؤها وأحفادها فى غمرة الهرب .

مد دارا يده يساعدها على النزول وإتكأت العجوز عليها وهى تنزل .. القصف يقترب أكثر وأكثر .. إنهما الآن فى مرمى

القصف .. وسرعان ما ألقيت القذائف قريبة منهم .. ويتناثر الحجر من حولهم .. ودارا فى محاولة يائسة يساعد جدته .. وهى تمشى فى ذهول من لا يريد أن يصدق أن من يقذفهم هم جيرانهم وإخوانهم .. وسرعان ما وجد صخرة كبيرة .. حمل جدته إليها حملاً وهى تنوء بيده حتى تواريا خلفها واتبعوا بقذيفة كادت تلامس منهما الأقدام .

ولكن الله كتب النجاة .. وطال الإنتظار والقصف يقترب ويتباعد .. وصيحات الأطفال يسمعها دارا من مخبئه هو وجدته .. تأتى باكيه من أعلى الجبل عند اشتداد القصف ثم ضاحكة مرحه بعد انتهائه .. وأخيراً سكن المكان وخلا من الطائرات مع اقتراب الليل .. وتنادى الجميع.. وأسرع دارا ليساعد جدته للتحرك إلى السيارة .. وأخذ الجميع مقاعدهم .. وأكلوا سريعاً ما تيسر أثناء المسير وجاء الصباح ولا زالوا يسيرون .. وتتوقف أحياناً إحدى السيارات ليفرغ قائدها بعض البترول فيها .. واقترب الهدف .. الحدود .. وماذا سيفعلون عندها إنها مرحلة أخرى من الرحلة .. كيف سيدخلون ؟ وهل سيسمح لهم بالعبور .. أسئلة كانت تشغل بال دارا ولم يقطعها إلا أصوات قصف أتت من بعيد ..

إنها غارة أخرى .. ومرة ثانية .. تنادوا بالوقوف والإختباء خلف الصخور .. وسارع دارا بتغطية السيارتين بفروع شجر حتى تبدوان من بعيد وكأنهما شجرتان .. ونزلوا مرة أخرى .. واقترب القصف قال دارا : هيا يا جدتى .. هيا أساعدك .. نظرت إليه .. اذهب أنت يابنى لم يا جدتى .. سأجلس هنا .. لا .. إن القصف قد يصيبك .. قالت : لا أستطيع الحركة .. وقد أسبب لكم عرقلة فى حركتكم .. هيا سنفعل كمثل المرة الأولى .. اذهب أنت يا دارا .. اذهبوا كلكم .. وعبثاً ذهبت محاولات الجميع لإقناعها بالتحرك .. واقترب القصف .. وأصبحوا قريباً من مرماه .. فأسرعوا بالإختفاء .. دارا يحس بأن شيئاً ما يؤلمه .. كان يتمنى أن يعود إلى جدته فيحملها رغماً عنها .. ولكن لا يمكن أن يفعل ذلك الآن وقد اشتد القصف .. وطال اختباؤهم ساعة أو ساعتين .. وأطلقت قذيفه نثرت الأحجار بقوة قريباً من دارا وأصابته إحداها فى كتفه .. فآلمته ألماً شديداً .. وسمع صوت زجاج يتكسر .. أترى القصف قد أصاب السيارة .. أحس بالندم على تركهم لجدتهم وما أن خفت صوت القصف حتى سارع حيث السيارة .. التى فيها جدته .. لم يصبها القصف .. الحمد لله .. لقد عدنا ياجدتى .. كانت جدتى تجلس فى استرخاء قد مدت قدميها إلى

الأمـام وأغـمـضـت عـيناها فى راحـة .. لقـد نامت .. وتأمل فى وجـهـا المشرق الحبيب .. الحمـد لله لم يسمـهـا السوء .. وعاد الجميع وبدأوا فى الدخول إلى السيارة .. وجلبه الأطفال ترتفع فى مرح .. والجده نائمة مكانها .. وحفيدها الصغير يداعب خدها فى إصـرار .. ياجدتى .. أحس دارا بشىء ما .. مد يده بسرعة يتحسس جدته .. راعه ملمسها البارد .. دفن رأسه عند صدرها وهو يبكى .. لقد ماتت جدتى .

محـارة

محارة تسبح فى بحر عميق .. تفتح صدفتيها فى سعادة .. فيدخل الماء إلى جوفها .. فيشعرها بالإنتعاش والثقة .. وتعود لتتهادى على قاع البحر .. تسرح فى لُجته الواسعة .. وتمرح فى خضمه الكبير .. تداعب نفسها بالوقوف أمام تيار مائى .. فيحملها فى طريقه إلى حيث يريد .. فتفلت منه .. لتعود إلى طريقها .. حيث تريد .. تقف على صخرة ، تعود لتنزل منها إلى الرمال ، ثم تسير بين نبات الماء لتدخل منه إلى كهف تسكنه سمكة مارينا كبيرة فتفزع منها إذ رأتها تبتسم لها بأسنانها الحادة المتراصه .. لتعود أدراجها إلى الطريق .. بطولة اللانهائى .. وتفتح هلامها لتستقبل نسمات الماء المترقرقه .. وبينما هى كذلك .. إذ جاءها زائر غريب .. حصاه اقتحمت عليها صدفتها كانت صغيره .. لكنها صلبه عنيده .. ضاقت صاحبتنا ذرعاً بها .. حركت نفسها يميناً ويساراً .. فتحت فمها لتيار الماء .. فلم يُجد .. وكادت تنخلع منْ أصدافها .. فعادت تحرك هلامها تتململ لا فائدة ..

ضاق المكان بساكنيه ..

اهتزت فى حركات هستيريه عنيفه .. فما ازدادت الحصاة إلا ثباتاً رويداً .. رويداً .. هدأت ثورتها .. وسكنت غضبها .. واستقرت على القاع فى استسلام ..

ومر زمن وهى كذلك وتذكرت أيام ماضيها فأرادت أن تقاوم الحصاة .. فإذا بها تفرز من جسمها .. مادة أحاطت بالحصاة فخنقتها فاستمرت فى سعادة يوم وراء آخر تزيد من إفرازها .. شعرت الحصاة بالحصار فأرادت الخروج .. وهيهات .. ولم يكن الخروج سهلاً كالدخول .. يوماً فيوماً يزداد الحصار .. ويضيق المكان .. إذ كان حجم الحصاة يكبر بما تلكس عليه من عناد المحارة كانت تفرز من كيانها .. فينهكها البذل .. ولكن استحالت حياتها إلى قوه تفرزها .. تكلفت الكثير من البذل والعناء .. ولكنها كانت سعيدة .. كانت تحس باقتراب الفرج .. وفى يوم ما .. كان هناك بحار يسبح تحت الماء يبحث عن شىء ما التقطها فى حرص .. ونزع من جوفها الحصاه بما تكلس عليها من أحشائها .. عانت كثيراً .. وأحست بالفراغ بيداها ما لامست قاع البحر حتى انطلقت مسرورة .

الشمس

يسحبه من أعماق نومه ذلك الصوت .. يدفعه إلى الاستيقاظ ويداه تبحثان فى عشوائية عن مصدره .. ليتخلص من إزعاجه .. ومع حركته وتململه .. استيقظ .. ليتذكر .. إنها المهمة اليومية المملّة .. الذهاب إلى العمل .. قام منتفضاً مِن سريره ليسكت المنبه تلك الآلة المزعجة التى تجره إلى الواقع كل صباح .. سأتخلص منك يوماً ما .. قالها وهو ينظر إليه كطفل يتحدى غريمه .. غسل وجهه وارتدى ملابسه ..

وخرج من المنزل .. فوجئ .. الظلام يلف المكان ونظر إلى ساعته .. أيكون قد أخطأ فى ضبط المنبه ؟! .. أبداً .. إنها السادسة والنصف ..

عجباً !! أين ذهبت الشمس ؟! ..

ركب سيارته .. أدارها ومضى إلى العمل .. الناس يمشون فى ذهول .. ينظرون إلى أعلى .. ويتخبطون فى مشيتهم .. احتشدت السيارات خلف بعضها فى الشارع الرئيسى ، وقد راعها غياب الشمس ففتحت الأنوار .. لم يكن عمله بعيداً ..

فخرج إلى الطرق الجانبية يجتازها .. عسى أن يصل فى موعده .. فالمدير لا يلتفت إلى أعذاره .. هل سيصدق أن الشمس غابت .. وأن الظلام تسبب فى ارتباك المرور ؟! لم تكن الطرق الجانبية بأحسن حالاً من سابقتها .. يبدو أن غيره قد خطر له الخاطر نفسه .. لم يجد بدّاً من الترجل فترك السيارة ونزل إلى الطريق .. الطلبة فى طريقهم إلى المدارس .. والنساء يلملمن حقائبهن فى جدية .. والرجال يتبادلون النظر فى حيرة ..

أين الشمس ؟! سؤال كان يطرق أذهان الجميع .. لكنهم جميعاً مضوا إلى أعمالهم منشغلين بهموم حياتهم .. وقف فى الطريق .. أمام سيل الناس .. إنهم جميعاً يمشون فى اتجاه وهو يمشى فى اتجاه معاكس إلى أين تذهبون ؟ أين الشمس ؟ ما الفائدة من ذهابكم إلى أعمالكم ..لقد غابت الشمس .. لم يعره أحد إهتماماً .. أم تراه لم يتلفظ بما تكلم به !! مضى فى طريقه مثلهم ليذهب إلى عمله حتى لا يعاتبه السيد المدير .. ومرت أيام واعتاد على غياب الشمس .. وأصبح كأن الأمر لا يعنيه . ليس هناك شمس !!

نزل إلى بائع الخضار ليشترى طعامه .. نور مصباح يتيم فى

وسط الدكان يضيء مساحته الصغيرة فى كلل .. لم يجد فى الدكان إلا بضع أعواد ذابلة يابسة من كل صنف : أين الخضار ياعم ؟ .. لم أجد فى (الوكالة) إلا هذا .. الشمس غابت يا أستاذ .. كيف ستنمو الأشجار .. سأل نفسه .. من أين سيستقى اليخضور أشعة الشمس ليقوم بالبناء الضوئى .. فكر فى حجم المشكلة لو غابت الشمس أسبوعاً آخر كيف سيكون حالنا ؟ .

اختلط الوقت فلم يعد يميز الصباح من المساء .. فكان عمدته ذلك المنبه الذى يوقظه كل صباح للعمل .. أما المساء فكان خالياً من القمر .. انطفأ القمر .. أليس هو انعكاس الشمس .. لن يستمتع بالجلوس فى الشرفة على ضوء القمر .. وقف فى الشرفة كمن يخطب .. أيها الغافلون .. أيها الناس أين الشمس (!؟) .. لم يجبه إلا صوت بعض « الشبابيك » وهو تغلق فى وجهه (!) .

استيقظ على صوت المنبه مرة أخرى .. قام وهو فى كرب وكان أول ما قام به إطلالة على الأفق .. لا تزال غائبة .. آه تحرك مكدوداً .. ليمارس ما اعتاد عليه من الذهاب إلى العمل .. إن عينيه تؤلمانه .. أتراه قد كبر ؟! نزل مسرعاً ليمشى فى الطريق ..

لا تزال عيناه تؤلمانه .. ماذا حدث لهما .. يبدو أن طول التركيز فى الظلام قد أضعفهما مع مرور الأيام .. آه أيتها الشمس أين أنت ؟ .. وفى الطريق وجد الناس يتخبطون .. يبدو أنهم أصابهم ما أصابه من ضعف البصر .. لكن الجميع كانوا سائرين إلى أعمالهم .. وهو كذلك أيضاً .. إلى أن جاء يوم استيقظ فيه من النوم .. وسارع إلى المصباح ليوقده فلم يستجب له .. جميع أنوار المنزل لا تعمل .. أترانى قد عميت .. لا أزال أرى .. لقد انقطعت الكهرباء .. انقطعت من كل البيوت .. خرج إلى العمل على عجل .. الناس يمشون إلى أعمالهم وبعضهم أشعل النار فى خشبة بيده لتنير له طريقه .. وفكر فى نفسه .. رجع إليها .. لماذا تنقطع الكهرباء ؟ .. سأل أحد الناس فقال إنه الضغط الكبير على الأجهزة التى لم تعد تتحمل .. وماذا سنفعل ؟ .. لم يجبه أحد .. ذهب إلى العمل واستمع إلى صوت نحيب .يرتفع من مكتب المدير : ماذا حدث له .. لقد فسدت شبكة المعلومات والكمبيوتر ، وليس هناك أمل فى إصلاحها فالكهرباء قد قطعت .. لماذا نجلس إذن على الكراسى .. ليس هناك عمل .. وليس هناك شمس .. لم يجبه زملاؤه .. وظل جالساً .

وبعد أن انتهى وقت العمل خرج إلى الشارع لم يكن ثمّ ضوء شمس ، ولا ضوء مصباح ، ولا نور قمر .. ظل يتحسس طريقة ومر على « الخضرى » لقد أقفل أبوابه .. ترى أين ذهب ؟! .. لفت نظره أن أشجار الشارع والحديقة المجاورة قد ذبلت .. وتساقطت أوراقها .. وعرف وقتها لم لم يجد الخضرى .

عاد إلى العمل مرة أخرى .. فهو لا يطيق الجلوس فى البيت .. المدير لا يزال هناك .. دخل عليه وكلمه .. كان واجماً ولم يرد عليه .. وإنما قام إليه يتحسس متتبعاً مصدر الصوت .. لقد فقد بصره .. خرج مسرعاً .. أيها الناس لم لا تتكلمون .. أين الشمس ؟ أين القمر ؟ .. أين النور ؟! لم يجبه أحد .

ذهب إلى منزله .. أراد أن يأكل .. ليس هناك طعام .. أراد أن يشرب .. فتح الصنبور .. نزلت منه قطرات ثم انقطعت محدثة صوتاً أشبه بالشهيق .. يا إلهى .. حتى الماء انقطع .. ماذا سنأكل ؟ ماذا سنشرب أوليس الماء من النهر .. والنهر من المطر ، والمطر من السحاب ، والسحاب يتكون بواسطة الشمس ؟! هكذا قال لنفسه .. خرج إلى الشارع مرة أخرى يمشى كالمجنون .. ألا تشعرون ألا تشربون ؟ أين الشمس ؟ أين الماء .. ارتفع صوت

كان يسمعه ولا يعبأ به .. سمع صوت الأذان وأحس شيئاً يدعوه
إليه ويجذبه إلى هناك .. إلى المسجد .. دخل فوجد الماء تعجب ..
وتوضأ .. أحس أنه يبصر شيئاً فشيئاً صلى .. أحس بحلاوة الصلاة
جلس يذكر الله .. ذاق طعماً جديداً .. خرج من المسجد فوجد
بتاشير الصباح .. ولما تشرق الشمس .. عاد إلى طريقه وقلبه
معلق بالمسجد وعزم أن يعود لاحقاً ثم سأل نفسه هل ستشرق
الشمس ؟ .

الزهـر

هل صليت العصر ؟ قالها وهو يمسك بكتفه فى حنان .. كان صوته حازماً .. وقف مشدوها .. ماذا يقول ؟ .

السؤال يرن فى أذنيه .. لم يكرره عليه .. ولكنه ظل يتكرر فى رأسه وجوانحه .. هل صليت العصر ؟ أى جرأة واتته حتى يكلمنى .. أولم يعلم من أنا ؟ أنا الذى ترتعد الفرائص لذكر اسمى .. أنا الشرس القوى الذى يجتنبنى كل « الصيّع » ويتملقنى كل الضعفاء ويعطينى الناس إتقاء شرى ... أما الذى يفكر أن يرفع رأسه تحدياً لى « فتّتيه غزّه مطواه » ليكون عبره للآخرين .

هل صليت العصر ؟ لم يكررها ولكنه مازال ينظر إليه بعينيه الصافيتين وبثقته بنفسه التى لم يعتدها من أحد .. ما زالت يده على كتفه .. وكأنه يمسك بتلابيبه .. وتذكر يوم أن أمسك به أحد « المخبرين » فجعله يندم أن وضع يده على كتفه .. كيف يفعل ذلك ؟ .. أما هذا فلم يدر لمَ لمْ يطح بيده ولم لمْ يطرحه أرضاً كما فعل مع الآخر .

هل صليت العصر ؟ ما زال السؤال يتردد في رأسه .. أولم ير ما فعله الآن .. أنا واقف أمام « الفرشه » « اطق الزهر وألم الفلوس » هذا عملى الآن « يقولون حرام » وقلت أحسن من لون الدم .. تعبت من المطواه والسنجه وقلت اكسب من حاجة ثانية .. يأتينى الشباب ليضعوا على الترابيزه ماجمعوه من المال .. وأنا أطق الزهر فى الكبايه .. وأغرى الزبون بالمكسب فى الأول وبعدين « أقش » لازم « أقش » وكله يخسر « يقولون حرام » وقلت اللى مش عايز مايجيش .

هل صليت العصر ؟ ياله من سؤال .. وهل صليت طيله عمرى .. كنت أسمع الآذان فأنفر منه .. هكذا نشأت .. لم يعلمنى أحد الصلاة .. علمونى أن آخذ ما أريد .. الحق هو مصلحتى .. مصلحتى فوق كل شيء .. ومن مصلحتى أن أكون قوياً .. وحتى أكون قوياً لازم ما أصليش ! .

هل صليت العصر ؟ العمر يأخذى .. الأيام تهدمنى .. فين صحة زمان .. الشيب يزحف على رأسى حتى متى أظل كذلك .. لم أسأل نفسى يوماً حتى متى ..

نظر إليه رآه أقوى منه .. أكبر منه .. يمسك به .. خاف ..

لأول مرة يشعر بالخوف .. تحسس مطواته .. هم أن يتحداه أن يقول له وأنت مالك يا ابن الـــ.. ولكنه لم يفعل .. لا يستطيع أن يفعل أى قوة فى ذلك الشاب .. كم هو لطيف .. شعر بارتياح له .. أحســن أنه يهابــه .. يحبه .. يرغب فى القرب منه .. .

هل صليت العصر ؟ كررها عليه .. تلعثم .. سقطت الكباية من يده .. وقع الزهر على الأرض .. قال : لا .. واستسلم .. شعر بالتقصير .. أمام الله .. ارتجف .. قال له تعال نصلى سوياً .. تحرك معه .. ألقى نظره على « الفرشة» .. دفعها بقدمه .. الشباب واقفون ينظرون إليهما فى ذهول سارا سوياً .. الفرشة وقعت على الأرض .. والفيشات تبعثرت .

فى الفندق

كانت جميلة .. بضة الجسد مغرية .. وفوق ذلك فإنها شاغلته بعينها ظلت تنظر إليه فى استراحة الفندق حتى لفتت نظره .. كان يقرأ الجريدة .. منتظراً مرور الوقت حتى موعد الطائرة .. قال لنفسه إن هى إلا ساعة وينتهى كل شيء .. لقد دار بينهما حوار صامت بالإشارات والأعين .. كانت أكثر جرأة منه .. نظرت إليه وأطالت النظر .. لفتت إنتباهه .. لم يعر ذلك اهتماماً .. لعلها تتأمل شيئاً ما .. ولكنها علقت عيناها على وجهه .. كانت تجلس قبالته يفصلهما منضدة صغيرة .. ولمحها من وراء الجريدة وهى تبتسم له .. نظر حوله سريعاً .. ليس هناك غيره .. نعم إنها تبتسم لى .. عجيبة .. إن هيأتها أفضل من مسلكها .. ابتسم ابتسامة خافته كأن يخشى أن يحاسبه أحد عليها .. استحى من شيبته الزاحفه على شبابه ولكنه عاود نفسه ونظر وأصبحت الجريدة مجرد غطاء يتوارى خلفه .. لم يدر أيفعل ذلك خجلاً أم حتى لا يلفت النظر إليهما .. أصبح الآن متأكداً أنها تنظر إليه وأنها تقصده .. وماذا بعد .. تأمل وجهها .. عينان واسعتان .. شعرٌ

أسود مصفف بعناية جسد متناسق .. هل تريد منه شيئاً .. أن تكلمه مثلاً .. ثم خطر له خاطره أتراها اختلط عليها الأمر بينه وبين غيره ربما .. أزاح الجريدة عنه حتى يبدو وجهه .. فاتسعت ابتسامتها .. كانت تلتفت بين حين وآخر حتى لا يراها أحد .. م تخاف ؟ وممن تخاف ؟ ألها زوج .. أم معها أهل .. أم ماذا .. مع ذلك ظلت على جرأتها معه فقد غمزت له بعينها .. قال لنفسه سلوكها مريب .. أترها مختله (!) .. لكنها جميلة .. وأنا رجل محترم ثاب إلى نفسه ولامها وتشاغل بقراءة الجريدة عنها .. وسكت برهه و راوده جمالها .. ثم بدا له خاطر لم لا أجاريها حتى أتسلى ، أشار إليها بأصبعه على استحياء .. أشرق وجهها .. ثم قامت فجأة .. واتجهت فى دلال نحو التليفون الذى بالبهو .. سأل نفسه : هل انتهى كل شىء أم ماذا ؟ سأل نفسه معاتباً لم فعلت ذلك ؟ ..

سرعان ما عادت وجلست أمامه .. ووضعت ساقاً على ساق .. فبدا جزء كبير من ساقها .. تصبب عرقاً .. وخيل إليه أن جميع من بالفندق ينظر إليه .. وهو ينظر إليها أشارت إليه فابتسم .. ونسى نفسه .. أخذ زمام المبادرة وأمسك بمفاتيح غرفته يهزها

.. أشارت بيدها إليه أن انتظر قليلاً .. ثم رمقت بعينها في حذر إلى جانب الصالة وكأنها تراقب شخصاً ما .. ثم نظرت إلى ساعتها وأشارت إليه وإلى مفتاح الحجرة .. فهم من الإشارة أنها تسأله كم رقم غرفتك ؟ .. أشار بأصبعه واحد واحد .. أربعة .. أشارت واحد اثنين أربعة ؟ أشار لها لا لا .. واحد .. واحد أربعة هزت رأسها .. لقد فهمت ، ثم ابتسمت ، وغمزت له بعينها وكأنها تؤكد له ما يدور بنفسه .. ثم أعادت النظر إلى جانب الصالة .. نهض أمامها منتشياً .. وهو يشير إليها أن تتبعه .. استوقفته بنظره .. ثم أشارت إليها بأصبعيها السبابة والإبهام محركة الثانية على الأولى كهيأة من يشير إلى الفلوس .. تلعثم .. أتريد منه مالاً .. ألم يكن ذلك منها إعجاباً به .. بادرها بإشارة الموافقة .. فقد كانت جميلة .. ثم عنَّ له أن يسألها بفضول كم تريد فحرك يده مستفهماً .. أشارت ثلاثة .. نهض وهو يهز رأسه موافقةً .. ويهز المفتاح في يده تأكيداً واتجه إلى المصعد .. ثم نظر خلفه مستعجلاً أشارت إليه بما يفهم منه انتظرني .. في المصعد رأى نفسه في المرآة .. لم تردني لشخص ولا لإغرائي .. بل كل من كان سيجلس أمامها كانت ستقوم معه بنفس الدور .. ثم ماذا تريد : ثلاثة أم ثلاث مائة أم ثلاثة آلاف ؟! .

توجهْ إلى غرفته .. فتحها وجلس ينتظر بداخلها .. لا يريدها أن تتأخر .. كأنه يسابق الزمن ولا يريد أن يخلو نفسه ولا أن يواجهها .. كان يهتز من الإنفعال ويحسن أن ظهره يؤلمه .. وارتمى على السرير كانت أول مرة يمر بتجربه كهذه .. أتراها محتاجة وقد استغل حاجتها .. قال لنفسه العرب تقول : تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها .. بدأ يفكر .. هو لا يريد أن يفكر .. ولكنه لا يمكن أن يمنع نفسه .. تذكر كلمة هند عندما بايعها رسول الله ﷺ ألاّ تسرق وألاّ تزنى قالت : وهل تزنى الحرة ! .. ثم قال : إنها ليست كذلك ثم صمت لحظة وقال بصوت مرتفع .. ولا أنت كذلك ..

أوليست تريد أن تفعل ذلك معها .. فأنت إذن شريكها بدأ الصرع يتنامى فى رأسه ..

لماذا فعل ذلك .. إنها جميلة ..

وهل كل إمرأة جميلة يحق لك أن تتملكها ولكنها هى التى تريد .. حتى لو أرادت هى .. وماذا عنك أنت ..

ومن قال لك أنها تريد .. إنها تخدعك .. توهمك بأنك شىء حتى تأخذ منك مالك ..

خطوات تقترب من الحجرة .. ارتعد .. أتراها هى .. ابتعدت الخطوات .. ليست هى .. تنفس فى ارتياح وعاد إلى أفكاره وما يمنعنى أن أمتع نفسى ساعة وينتهى كل شىء .. ثم قال : وبعد ذلك تبقى الحسرة والإثم ..

طاف جمالها بذاكرته .. أغراها .. رائعة الجمال قال لنفسه : إنها أجمل من .. من .. زوجتى ..

زوجتك .. الآن تذكرت تلك المرأة الطيبة التى تجلس تنتظرك فى بيتها .. مع أطفالها .. بأى وجه تقابلها ، وهى تبسم باستقبالك بابتسامتها المشرقة وشوقها الدافئ وحولك الأطفال يتمارحون ، وتمتد أيدهم فى سباق لتحملهم ..

اغمض عينه فى قلق .. أغلق الباب على نفسه من الداخل .. الصراع لا يزال قائماً ..

لم لم تأتى .. ولماذا تريدها أن تأتى .. وتذكر قول الشافعى الذى كان يحفظه من قبل :

إن الزنا دين إذا استقرضته
كان الوفا من أهل بيتك فاعلم
من كان يزنى بألفى درهم
فى بيته يزنى بغير الدرهم

فهل تريد حقاً أن يفعل الله بك ذلك ؟ .. سأل نفسه .. وأحس نوراً يدب فى أوصاله .. كانت هناك ثلاث ساعات حتى موعد الطائرة .. قال لنفسه : لا يهم .. سأترك هذا المكان بمن فيه .. وأنجو بنفسى جمع حاجاته .. بسرعة .. وفتح الباب وكأنه يهرب .. وفى الصالة لم يدر إن كانت واقفة عند المصعد لتركب أو أنها فوجئت به وهو يحمل شنطته .. كل ما فعله أنه لم ينظر إلى مكانها بيد أنها تابعته فى ذهول وهو يغادر المكان .

فهرس القصص

رقم الصفحة

